الحداثة الشعرية

بين الكيانات الرخوية والكيانات التراثية

بقلم أحمد اسعد العلي

إننا امة معانيه ترسف في اغلال التغلب العالمي حضاريا وفكريا مما جعل ناشئيها يشعرون بوجودهم الجغرافي فحسب غير مبالين بوجودهم القومي الا بمقدار ما يتعلق ذلك بامتحانات الشهادات !!.

ان الشعور القومي لا يكون إلا باستمرار تدفق النسغ التراثي الذي يمتح ابداعاته ابدا من الارض والمجتمع . وبتاثير الاشعة الشعرية تحدث عملية التركيب الصوتي ليخضور هذه الابداعات ولكن بعيدا عن اولئك المتعكزين من مقلدين رومانسيين لتمرير نتاجهم من قصائد ميتة ليس لها من الابداع سوى ضوابط شكلية هشة مفرغة حتى من الجماليات التشكيلية والارهافات الشاعرة ..

وبعيدا جدا عن البرناسيين ومريدي اجهاضات الارهاص الشعري وعمن وقعوا في مفراق التغريب بل في ـ عقدة الغربي ـ الى حد التمني ان يعيشوا محلياتهم الاجتماعية في اجواء الغرب تماما كما تمنى غربيون كثيرون في العصر العباسي والاندلسي حين غرفوا من الفكر الشرقي ما شاء لهم قدر التواصل الحضاري . اهي الدورة التاريخية ؟ حتما لقد تبودلت الادوار ولكن محدثي الغرب لم يتمردوا على تراثهم بل ابقوه روحا يعيش بها حديثهم ثم انهم لم يكونوا مقلدين ولم يعتمدوا ادب الترجمة بل ابدعوا مضامين شعرية كعلاقة سببية للابداعات المستقبلية في مجتمعاتهم حيث اودعوها في اشكال تراثية تختلف منذ بدايات نشوئها عن الاشكال التراثية العربية من حيث ان الوزن العروضي لديهم هو في حقيقته غير موزون بل هو لما يزال مقاطع في مزدوجات هي في احسن الاحوال مطعمة بقافية خنثى او اكثر ..

انهم في الغرب لم يتمكنوا من تجاوز هذا الارهاص الشعري في المزدوجات الا في العودة الى صياغة البدايات حين كان الشعر عند نشوئه خلجات نثرية وحسب وذلك بسبب الاضطراب اللغوي لديهم فجذور لغاتهم ليست في الطبيعة بل هي تاريخية تعاني من فقدان الاصل الروحي الموسيقي وضياع الناظم الجذري الثابت ، ان الاحفاد الفرنسيين مثلا قد لجأوا كثيرا ، وبوسائل البحث التاريخي المكننة ، الى ترجمة ادب اجدادهم ليتمكنوا من التعرف على هذا الادب ذلك لان معدلات تصرفهم في اللغة عبر الجيل الواحد هو الى حد التغيير الفوضوي احيانا وربما كان ذلك نابعا من شك ذاتي لديهم في اصالة لغة الاجداد باعتبارها ليست وليدة طبيعتهم وانما هي هجين تكويني من اللغات الهندية الاوروبية معا !

ان ذلك التغيير لا يعني بالضرورة والحالة هذه تحولا تقدميا بل هو اقرب الى التحولات الانكسارية التي تذهب بالشيء كاملا الى اشياء جزئية وذلك بعكس اللغة العربية التي هي في اسوا احوالها ذات خاصة « اسفنكسية » . فالعربية التي تحول العرب في العصر العثماني الى كتابتها باللهجات العامية المختلفة جف معين حياتها الابداعي الذاتي فطويت بذلك صفحة

من صفحات الثقافة الانسانية ولكن الى حين ، فقد قامت سريعا من صحراء ذلك الجفاف لتمارس رسالتها الخالدة بنفس قوتها الحياتية البدئية ، ذلك ان المثقف العربي قد انحدر في العصر العثماني الى حالة من التكلس امتدت اجيالا مما باعد بين الشعب وثروته الثقافية الوجدانية ..

وهكذا التفتت العكاظات العربية المعاصرة الى النهايات العباسية لتتواصل بها تراثيا في نوع من التوازن التاريخي بين تراث الجذور الضاربة في اعماق الماضي والفروع الناهضة على سطح الحاضر في حين كانت لبنة ذلك التوازن التاريخي هو لغة التراث التي استمرت تجمل ايدلوجية التشكيل في الشعر العربي وتصلب شكلها الى درجة انها منعت من حدوث انفصام مرضي بين التراث الماضوي والحداثات المتوالية تماما كما كان الشعر العربي يعيش سائر مجالات لغته مغنيا الفكر الانساني ومغتنيا منه رافضا بان واحد الاستغراق في الاقليمية ..

وهكذا فعل ادباء التراث من امثال ابي النواس والمتنبي . فقد كانوا مثقفين كبارا عاشوا في مجتمعاتهم متفاعلين مع الثقافات الاجنبية اليونانية والهندية والفارسية ولكن ان يتفاعل الادب العربي مع الادب العالمي ليس معنى ذلك ان نعتمد ادب الترجمة وموحياته فحسب ونسمي ذلك ابداعا وهو اليوم هجين متناقض الى حد التنافر المقرف نتيجة تناقض مصادره التي ينهل منها اليوم سواء الايدلوجية او القومية في حين يفتقر الى مجرد ناظم شكلي له . وفي ذلك ترسيخ لما هدف له مفكرو الغرب ممن حقدوا على التراث العربي فحاولوا النيل منه وخاصة « الشعر » بغية تدمير احد سواميك الروح الثقافية الوجدانية للامة . والامر الكارثي هو محاولة مريديهم لدينا وقد شحنوا بافكارهم ان ينالوا من ذلك التراث في حين يسوغون لانفسهم منطق الوصاية على الادب العربي «القاصر» !. ان محاولتهم تدسيم الدماء الشعرية العربية بشحوم الصناعة الغربية انما هي عملية خطيرة قد تؤدي الى تصليب العروق الشعرية وبالتالي الى سكتة الشعر .. اننا لا نريد للشعر العربي ان يرسف في اغلال الغربية بل نريده ان يتنامى في فسحة الحرية بعيدا عن مظلة الفوضى والرخويات الادبية التي تتحرك بارجل كاذبة !.

ان الحرية الحقيقية هي تلك التي تستلهم ضوابطها من نظام ما متعامد مع جذور القاعدة التراثية والمتمثلة بنظام المعاد له الموسيقية والمتفاعلة مع القواعد التراثية العالمية بالقدر الذي يكفي لاستمرار الشخصية القومية والاجتماعية بكبرياء وثقة .

لقد ارخصوا الشعر العربي عندما قالوا ليس لدينا قيم شعرية عربية او مجرد مقاييس لها بل انهم عندما نريد أن نكتشف القيم الجوهرية للقصيدة العربية المعاصرة علينا ان نزينها بمقاييس القصيدة الغربية الحديثة !! وهم في ذلك غفل عن استكناه ماهية الحداثة غير مدركين ان روح الحداثة التي بها يعيش الشعر المعاصر هي التي يتمثل بينها وبين روح التراث علاقة جدلية طرفاها التعامد والتوازي بحيث يريك منظور هذه الجدلية فروعا بواسق انما تستنسغ من جذور ثابتة اذ لا بقاء لفروع انقطعت عن جذورها .

وحيث نجد ان نشأة الحداثة الرخوية التي استنسغت من غير العربية كانت بداياتها في منطقة الرافدين حيث انكلة النفط ادت الى « انكلة » الثقافة فقد تبنى مرهصوا الحداثات حيال ذلك ادبا شد على قوالب محليات غربية لا يصلح التعامد بها او عليها متعامين عن اوابد التراكم والتنامي الابداعي لآلاف السنين تشكلت منذ البدايات الاولى للشعر العربي ورفدتها في الازمنة الشعرية سائر الميازيب المحدثة فكانت كوثرا ابدي الحياة متفاعلا مع املاح ارضه وزمنه ومجتمعه .. وهو الى انه ابدي الحياة فهو ليس زمنيا اذن لكان كل حديث بعد يومه قديما وهو ليس مجرد الابداع وحسب اذن لكان الوزن المحدث « المديد » في قصيدة « تابط شرا » وتجاوز « المقدمة الغزالية » في « لامية الشنفرى » يتقدم حتى على عطاءات المتنبي .. فالحداثة والحالة هذه لانكون شعراً حقيقيا الا بمقدار ما تتاصل من التراث وترفده،

تماما كظاهرة الشعر الاندلسي التي ظهرت بشكل كيانات شعرية جديدة على المنظور الشعري ولكن هذه الكيانات زالت بزوال الحاضن الذي اكتنفه على الرغم من استمرار الزمن الاندلسي بضعة قرون ونيف ، حقا ان الحداثة الاندلسية تصرفت في الاشكال والمضامين ولكنه تصرف متعامد مع الذات التراثية ومتوازن مع الاحداث والمتغيرات وانما بالقدر الذي تفاعلت به مع محيطها الطبيعي والاجتماعي والنفسي ..

وأما المنتصرون للانساخ من جلدة التراث فهم يباهون بالعقود الثلاثة التي عاشتها حداثتهم الشعرية ويعتبرونها فترة زمنية كافية لثبات قوائم هذه الخلبيات من الشعر . نسوق لهؤلاء مثلا : ما الزمن الاسرائيلي في فلسطين .. أهو ثلاثة عقود ؟! بعيدا بعيدا عن الاستغراق العمودي في الفردية ايها العاقون ... وبعيدا عن المباهاة بتهافت السقوط الفراشي على وهجات الادب المستورد – انه اذ يشد العين النشاز من عيون مريديه فانما ليسقطها في كوى من مهاب الاحتراق تماما كالفراشات يجذبها ضوء النار الى الانتحار ! لقد كانت الرؤى النابضة بالحياة على مدى الازمنة الشعرية استشرافا لآت بل رحلة في المستقبل متزملة بالماضي تنبض بالشمول في اوابدها وترعش بالمخزون التاريخي والفلسفي والاجتماعي بعيدة في ذلك عن الرؤى البهاقية المتناقضة بل كانت هذه الرؤى العبقرية تنسكب في تلقائية شعرية تواكب التثوير ان لم تحدثه وهي كانت عندما تتجاوز جسدها الاجتماعي بخطوات بعيدة المدى لتجد نفسها في شبه عزلة كانت تضطر الى التراجع نفس هذه الخطوات لكيلا تبقى وحيدة !! « طرفة ، عروة ، المتنبي ، ابو العلاء » .. ولكن الرؤى المعاصرة المتشاعرة ماذا فعلت؟ لقد تثاقفت على حساب السوامق والاوابد وحملت بعضا من قواميس ثقيلة غريبة المنتمى وبعضا من قنان فارغة ورطوبات عفنه وأحذية صينية وبعضا من قطع غيار جاهزة ليصنعوا بها ثورة في لغة الشعر فانمسخت قامة الشعر ، بل انهم رغبوا الى جماهير الشعر ان نصبر على بغائيات حداثوية ريثما تستقر بها قواعد ، فهل الى ابد اللا مصير يكون صبر ؟! وهل في اتهام الاحاسيس الفلسفية تبرير لتعثرهم ؟ فكأنهم لم يدروا صحة العكس في مقولتهم « القاعدة لا تمنع الاستثناء »

فاتهموا مسيرة الشعر الاصيلة بالسلفية والشكلية !! لقد غادر الجيل الحفيد الى غير امه التراثية فأرضعوه بشكل او بآخر ما تشزبه عن هويته مما جعل الشعر العربي يبدو اجنبيا عن جغرافيته فقل رواده ومريدوه من رجالات الادب وبالتالي تقلقل الشعور بالالتزام القومي ولكن ذلك لا يعني ان في الواقع جفافا وحتى لو كان ذلك فانه لا يستلزم جفاف الاحساس الشاعر بل ربما كون ذلك مناخا من العلاقات السببية للحوافز الشاعرة فانطلقت ولو قليلة صرخات مدوية تشد الاعوجاج الى طريق الاستقامة متلافية الرفض الجماهيري لهذا الرخوي من الزنى الشعري ، الذي لم يستطع حتى ان يلد جنينا شعريا !..

ولكن ينشد الجمهور الشعبي الى الشعر يهتدي به الى هويته القومية والاجتماعية كان على الشاعر المعاصر ان يكون نفسه فيرى أن ما يسمى شعرامنثورا ليس هو في الحقيقة الا شكلا عصريا لادب النثر العربي ولكن ان يستمر العناد في تسميته شعرا فذلك امتهان لادب النثر بل اسقاط له من الادب العربي ، ومغالطة تنفر الجمهور ، ثم كان عليه ان يلتفت الى الشعر في شخصيته الحقيقية فيعيش اجواءه غير منحرف الى اجنبية الواقع ، مدركا قيمة الكلمة الموسيقية الشاعرة، ومستشرقا عصرية الحياة ومتفاعلا بها غير متورط بعصرية مطلقة مبتورة الجذور ، ومستكنها لوقائع الاحداث بكلتا الشعوريتين الشخصية والشعورية الجماعية ، وبعيدا بابداعاته من طريق الصنع والمفاهيم الجاهزة سواء المترجمة او المستوحاة من نماذج مختلفة الهويات من حيث بدأت تتحول الى ركام من الرخويات الحداثوية تبقعوت على طريق الادب العربي مما اعوزنا الى آلة جرف !!.

والمنتصرون للانسلاخ من جلدة التراث يزعمون ان شعراءه قد يعرضون شيئا لكنه نفس اقفاص امرىء القيس وبعصافير تزقو ابدا لتخرج منها !!.

هؤلاء هل تجاهلوا ان وردة الربيع تتوالد كل اجيالها بنمط واحد ولكن بعبقرية الطبيعة المتجددة !

وانه مهما تغيرت انماط واشكال اناقــات الــوردة اللا ربيعية ومهما رشوا عليها من العطر فهي صائــرة الى حتمية موات . كذلكم الموسيقى الكونية من حفيف غصون وزقزقة عصافير وامواج بحار وهسيس اوراق اليست ذات موسيقى تكرارية وانما بابداعات متوالية لو كانوا يعلمون !!.

كالموسيقى الشعرية ذات النظام المتناظر هــي بحقيقتها متكاملة متساوقة كابداع نهائي لجدليــة الموسيقى في حين اجتازت مسافاتها مسيرة الشعــر العربي منذ البدايات فكانت ولا فخر ارهف واسمى ذائقة موسيقية شعرية متوازنة من بين مرهفــات شعوب الانسان !!.

ثم لقد تابع الشعر العربي مسيرته ضمن ركـام هائل من مدارس شعرية متناقضة واحيانا من لامدرسية فوضوية يعاني فيهــا مــن رفض مفراقي التغريب ومعارضة تمتاح نسغها من خالف تعرف ومن فحميات ادبية هي احدى نواتج الاستعمار الثقافي .

وحيال ذلك كان لا بد من عملية فرز كبيرة هي في بعض حالاتها اكبر من حجم النقد الادبي الحديث نفسه ونظرة حيثية نقدية للحركة الشعرية المعاصرة نجد ان الحداثين الرخويين حاولوا ان يسجلوا على استمرارية الحركة الشعرية المتعامــدة مــع التراث بعضا مــن اتهامات :

١ ـ الاستغراق في الشكلية الرتيبة حتى انهم تمادوا فتجاوزوا كلمة الاستغراق الى كلمة العقدة فقالوا بالعقدة الدولية في النحــو وبالعقــدة الخليلية في النواظم الموسيقية ، فهم والحالة هذه سيقولــون بالعقدة الانسانية في الحياة التي استمرت منذ الازل بنمطية متوالية (طفولة فشباب فشيخوخة) وبالعقدة الربيعية في جماليات الطبيعة التي استمرت اورادهــا وازهارها بعبقرية الطبيعة المتوالية ؟!!

٢ ـ تمرحل الشعر التراثي الى تكلس وكان تحركه اليوم رحويا مع السلفيات الشكلية بل انــه اليــوم ليس شعرا في منظور مقاييس الحداثة لديهم !!ولأنهم لا يدرون ان الشعر العربي قد حمل وارشف آمال وآلام الامة فواكب تاريخها وتنفس احاسيسها وفلسف مستقبلها بواجدانية ايحائية متميزة !

ام انهم لم يدركوا ان التحلل من مشكلية الدورة الموسيقية انما هو محض أفــراز غربي رفع لواءه الببغاوات الذين استقر في اعماقهم ان الغرب مطلقا هو التقدم وان الشرق مطلقا هــو التخلف ، وان اللا شكليات الشعرية المهربة بالنسبة لتنظيراتهم لها نفس جاذبية الثياب الاوروبية المهربة بالنسبة لاجسادهم ؟ هؤلاء كرهوا لسبب من عقد فيهم استمرار حمل الهوية العربية في اللغة والشعر كذلك منافقو الادب ممن راوا في مقياس العصرية تناسبا طرديا مع تحللهم من الذات !.

٣ ـ الدعوة الى الاستمرارية انما هي تصليب على الماضي ، والدعوة الى عدم الاكتفاء بحسيات الشارع انما هي غيبيات جانحة متبرجزه بل هي ارتداد عــن الثقافة الجدلية المتوثبة يجب مبارزتها بسيف ابن وليد الشعر ! وكانهم يقولون ان في استمرار الانسان انسانا تصليبا على ماض ران في استنساغ الفــروع مــن الجذور ارتدادا او مواتا !! ثم هل هو من الضرورة في شيء ان نرتدي اسمالا من العامية الشارعية بغية وصم « معصري التراث » بالبرجزه اللغوية والفكرية .

وهل نسمي عملية نفض غبار الغربيــان من عفن يباس عن الحلل الشرقية عملية مبارزه على حــد تعبيرهم بين ثنائي الشعر « الماضوي والحداثوي » ثم نجيز لانفسنا ان نسعر بينهما براكين مــن لا مبالاة المصير !.

٤ ـ أن الشعر العربي كان سينحو منحى ابداعيا حداثويا مستمرا فيما لو استمر التفاعل العربــي الاندلسي ولكنه جوبه بصليبيه ارجعته الى مــا وراء الظاهرة الاندلسية وهو اليوم يجابه بصليبية جــديدة لاعادته الى ما وراء ظاهرة التحديث الجديدة بغيــة لجمة ثانية باشكال المعادلة الموسيقية وبالوشائــج

اللغوية والشرائح الاسطورية ثم لاغراقه بمقاييس بلاغية هي تاريخيا مستوردة من الامم المجاورة وهؤلاء رهبان الاشكال التراثية لا يزالون جاهدين يدفعون بها الى شاطىء العصر الحديث !

وللحقيقة نقول انها المسوخ من القامات عجزت ان تتسامى الى العناقيد فنعتتها بالحموضة . ام انهم يرغبون غير اصولهم ومنتمياتهم فاضفوا هذه الرغبة على تنظيراتهم بل تهويماتهم الشعرية ؟ ثم الم يدركوا ان الشعر العربي غرب في الاندلس يلبس زركشاتها وانماطها ولكن من حيث تواصلت بأسدية عربية الاشكال ، وهو عندما راح يتعرى منها عاد يرفل في ثيابه الشرقية الساحرة ارهف حسا واصدق ذاتا (المتنبي ، الشريف ، ابو العلاء) ! ثم اذا هم تقياوا علينا بعضا من فحمياتهم الرؤوية فليكونوا اكثر لباقة في حضرة الاجداد فذلكم كتاب « الوساطة » يعرفهم المقاييس السلفية علهم يرون فيها استشرافا لحداثة تقصر عنها اقصى حداثاتهم الراهنة اذ يقول :

وكانت العرب (أنث « العرب » لانه عنى امة العرب) انما تفاضل بين الشعراء بالجودة بشرف المعنى (سموه واستشرافه للمستقبل) وصحة وجزالة اللفظ (الانتماء اللغوي الى الفصحى متجذرا بها حتى الشعيرات الماصه في الاصوات والوقفات والصور الايحائية) وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فاغزر ولمن كثرت سوائد امثاله وشوارد ابياته (الوصف والتشبيه وغزارة البديهه تتلاقى في محرق سيالات الشعور الراعش بالتشكيليات التساجمة) ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر (الموهبة الحبلى ببذور العبقرية متوالية الربيع) !!..

٥ ـ الشعر العربي التراثي لم يستطع ان يستقل عن التاريخ وهو الى ذلك حمل الى الجمهور ثالوث التخلف « الجهل والفقر والمرض » كما حمل اليه تشويها تاريخيا بتصويره العكس لمجريات التاريخ مثلا (كما في قصيدة عمورية لابي تمام) التي كانت بعرف بعضهم مجرد مذبحة انسانية ناجمة عن نزوة ردود الفعل لدى سلطتين متزاحمتين ! على كل فانهم يعلمون ان ما ينظرونه اليوم من تصورات سيكون تنظيره عكسيا في منظور المستقبل على مبدا المتغيرات الفلسفية والتاريخية ثم الم يروا انه حتى نضالات الاستقلال الوطني والاجتماعي الحالية انما تنفست برئة الشعر التراثي وقامت تحت قوافيه بل انهم يرمون القصيدة التراثية بالزنى الامي من حيث قالوا مع منظري الاستعمار الثقافي بان شكلها انما هو جذور مستوردة من يونان أو فارس او هند وهم حيال هذا السياق قد يسترسلون الى القول بأن العرب كشعب انما هم جذور مستوردة من هند أو فارس أو يونان ؟!

ان مريدي هذا الزيف التنظيري لا يخوضون في تهويماتهم هذه الا بما يتساوى مع اجر مسعر او مع شهرة تردم كوة نقص ، ذلكم اناس لا يخرجون من ذواتهم ..

٦ ـ ان سوابق عمود الشعر تبني نفسها بسواميك المناقضة على مبدا الاولوية التراثية وهي في ذلك تغرق في سبات من الشكلية الابدية غير متكيفة مع الحركية المتسارعة للايقاعات الحياتية والنقلات الحضارية !!

حقا الا يعلمون انه من دواعي الاعتزاز تنطلق الاولويات من الجذور ! ثم الا يعلمون ان في هذه السوامق كانت الحوافز لسائر ثورات الانسان العربي ؟! ثم ان تثوير الانسان انما هو مسألة مضمون وليس مسألة شكل تماما كالتثوير في القصيدة الشعرية فانما هو في المضامين وليس في الشكل بل ان تخنيث القصيدة عن طريق تنثيرها ليس تصرفا في الشكل وحسب ولكنه تحول الى لا شكليات رخوية وانحدار الى الادنى !.

٧ ـ رجعية لغة الشعر التراثي وغموضها المعقد وعجزها عن استكناه الحداثويات ! وهم في ذلك قد تمادوا بشذوذهم التنظيري فحصروا العنب عندما عجزوا عن معرفة الابعاد الايحائية والفلسفية والرجدانية والعمق المستكنه في لغة التراث فصاروا الى مسدات طرق ومغاليق ابواب لانهم انما داروا في عكس اتجاه الحقيقة حين التقوا مع دعاة العامية بشكل ما ، لهؤلاء نسوق دراسة حديثة تبين ان عالم اللغة

الانكليزية يكاد لا يحفظ من لغته اكثر من عشرة آلاف كلمة من اصل يقارب نصف مليون كلمة تراثية مضافا اليه ربع مليون كلمة محدثة مما يلجئه في حالات كثيرة الى استخدام قاموس !.

ونحن لا نكاد نعثر على كلمة من منسياتنا او مما لم نكلف انفسنا استيعابها حتى نصرخ بالتعقيد العربية ! ام انه كان على واحدنا ان يولد عالما لكل ما يمت الى لغته ، والا فهو حل من الالتزام بها ، (وذلك هو الضلال المبين !) ثم الا يدرون ان التعقيد والغموض لدى الشاعر التراثي هو نسبة الحصاة الى هملايا بينما هو نسبة الهملايا الى حصاة لدى ما يسمونه الشاعر الحداثوي .

ان الشعر العربي على الرغم من كل هذه الحجارة السجيلية التي حاولوا قذفها في وجه مسيرته المعاصرة فهو ما يزال ينبض بالاستمرارية ويعيش في عفوية الحس الشعبي متميزا عن ادب النثر. لقد ظل الشعر هو المحرك الفعلي للجماهير الى ان بدأ الخلل يتسرب الى نظامه الموسيقي عن طرق الاعتماد على مقاييس النثر الادبي فحسب سواء في جاذبية اللفظة ذات الموسيقى الذاتية او الحمل الجمالي والتوفيض وما الى ذلك من ارهاصات خيالية ونزوية ، والى ان مورست ظاهرة القمع على الشعر التراثي بهراوات من الانتهازية والسلبية والصياغات البراغماتية والبكائية والمازوشية والاساليب اللغوية فقيرة الاشتقاق جديبة الاهداف سواء اللغة العقارية او لغة الاسهال الكتابوي ذات الورم الجانبي مما يوجد في اقرب دكان للشعر الاوروبي . وربما في غد منظور

سيقول مؤرخو الادب ان ظاهرة الطفح الادبي من غوغائيات مما يسمونها « حداثات شعر » لم تستطع ان تؤصل ادبا جديدا بل استمر الشعر العربي يعيش قدره في الرسالة الخالدة متواصلا بالتراث انما بمضامين من الحياة المبقرة وبمتواليات من الشباب المتجدد ، اما الجديد الذي استوحي من التغريب في مستنقعات الانحلال الحضاري المتاخم فهو موغل في القدم ، ذلك ان تلك الصياغات في اللاشكليات ليست سوى نسخ للبدايات التي تجاوزها الانسان العربي في فجر تاريخه !.

في التاريخ يدل غير قليل من المؤشرات على الشعر العربي تطور من الايماءة ، الى الكلمة المرتعشة الراعشة الى الكلمة المعبرة الشاعرة فالتفعيلة الحداثية فالشطرة الشعرية فالرجزيات بركابة الشعور فقصيدة الشعر المتساوقه والمتناظرة مسم دورة موسيقية كاملة في النفثة الشعرية الواحدة سمي « البيت الشعري » وهكذا صار الانسان العربي اول الخلق الى الكمال الشعري فكان الشكل في الشعر كما هو الشكل في الانسان قصيدة الابد المتناظرة في صدر وعجز !!.

ولو ان الخليل الفراهيدي لم يكتشف في حينه بعضا من النواظم الموسيقية للشعر العربي ثم لو ان احدهم حقق اكتشافها هذه الايام اذن لكنا سجلنا في تاريخنا المعاصر انه تحقق اكتشاف فذ للذات الشعرية العربية !. ذلك على الرغم من ان الاكتشاف الخليلي لهذا البعض من البحور الشعرية ليس الا جزءا صغيرا من كل كبير بدليل اضافات بحور اكتشفت من بعده حيث أن هذه النواظم الموسيقية انما هي روحية المنتمى جدلية الارهاف توالدت من غنائية لا متناهية التنوع مما يفيض ربيعا متجدد الحياة !..

ويشاء القدر التاريخي للشعر العربي بعد هروبه في العصر العثماني ان يسقط في مطبات حضارة الرجل الآلي الذي تجذرت اسافينه في ضباب الاطلسي وعمق البلطيق ، فحاول ان يقوم من بعد سقوط ولكنه قام بنصف ثاورة الى الوراء الى صياغة البدايات الاولى متوهما أنه يتمثل معادل الحضارة الراهنة بعبثيات كاريكاتورية حشرها في شعر الشطرة فشعر التفعيلة فالكلمة المعبرة الشاعرة بما يسمونه « قصيدة نثر » والتي هي بالحقيقة ليست سوى ادب النثر الحديث !

حقا انه عود على بدء . وليته عود كالبدء من حيث تقول شاعرة فرعونية في عهد البدايات تخاطب حبيبها

« انه لمبهج يا اخي الذهاب الى الغدير !
هناك. سأستحم بحضورك ،
وسأتيح لك رؤية جمالي وانا في ثوبي ،
من الكتان الملكي الناعم »
عندما يغدو مبللا ...

وارجع مع سمكة حمراء ...
تستريح بروعة على اصابعي !..
تعال وانظر الي ...... »
وكجدلية عيني السماء في اسطورة شرقية شاعرة:
« ثلاثة ايام وثلاث ليال ...
كان الله في خصومة مع الشمس !
هزمت الشمس القمر ...
بحجر فضي ! »
وكنشيد بابل للام عشتار حيث اخذت الكلمات تتفلسف وتتموسق :
.. « انها المليكة ، مطاعة من الجميع .
الكل ينحنون امامها !..
وهي عندما تظهر ...
نستمد النور منها !..
حقا .. نجلها على السواء ،
رجالا ونساء .. » ..
وتطول في نهاية البدايات فترات الجدليات الموسيقية والايحائية لتصير الى التفعيلة الحداثية . فالشطرة الرجزية : ثم ليبزغ فجر استقرار النواظم الموسيقية ، ولكنه يبزغ من بعد اضطراب عروضي تارجح بين طرفي البيت الشعري ، كقول امرىء القيس في اولياته :
.. « عيناك دمعهما سجال   كان شانيهما اوشال »
ثم استمر الشعر العربي يتسامى الى النهايات التساجمة يرهف به السياق المعنوي بدورة موسيقية كاملة التناظر ، كفيزلوجية الانسان تتكامل شكلا بجزئيه المتناظرين ورويا بمديي التنفس ، تماما كسيكولوجية القصيدة تتكامل فكرتها شكلا بين طرفي البيت ورويا بين مديي الايقاع ، كقول « عروة » من الصعاليك :
.. « فاني امرؤ عافي انائي شركة
وانت امرؤ عافي انائك واحد » ..
وارتعشت اللفظة الشاعرة بالزمانية والمكانية ، لكن لتحلق بهما في « النهايات » الى التحرر من التغيرات واللا شكليات بأجواء من الصور الموسيقية الموحية .. كقول دعبل :
.. « لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب براسه فبكى ! »

وهكذا ارهفت اللفظة الشاعرة لتصبح حقا ساموك البيت الايقاعي ، وبات الشاعر التراثي - ولا اعني المتعكز على التراث - لا يرضى باللفظة المعبرة التي استوحاها بديلا فهل كان للمتنبي ان يرغب مثلا عن كلمة روم الى كلمة « خصم » ، او هل رضي (والمنايا هي صورة الدماء تراق) ان يضع كلمة « تراق » بدلا من كلمة « تدار » في قوله :
.. « وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى اي جانبيك تميل ؟
ليس من عنده تدار المنايا
كالذي عنده تدار الشمول .. »
واذ تواصلت المكاظات المعاصرة بالتراث . هل كان للشاعر « الشاعر ! » ان يرضى بديلا بواحدة « سواء من لفظة هادفة او صورة موحية » كقول احمد شوقي:
.. « ناقوس القلب يدق له   وحنايا الاضلع معبده » ..
وقوله :
.. « وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق » ..
وتتمبدأ او تتأدلج الكلمة الايقاعية ، كقول عبد اللطيف بشمان يرفل باللغة الشاعرة في شعره التشريني :
.. « وشعاراتنا على الخوذ الحمر
وعينيك ، « ان يمر الدخيل » ..
والخريف الشجاع كرمى « لتشرين »
تباهى وتوجته الفصول ! » ..
.. من منظور هذه الرؤى الشعرية نرى ان القصيدة الشاعرة بشخصيتها المتميزة تتنفس هموم الموقف وتستلهم القضية لا تنفعل بها فحسب بل تستكنه عمقها وتنبض بالواقع لتتفاعل معه بروح جدلية وترعش بالمستقبل تستوحيه امانيا واحلاما وتتنسم الحداثة برئة « المعادلة الموسيقية » وقد تعافت من خدّاع الذات زمن الامراض المستوردة والرواسب التراثية المشوهة ، محصنة ضد التسول والتعكز وضد الروم التغريبي ، تشد الرحال الى ربيع خلف بروح ربيع سلف تتجاوز التشيع الفوضوي لا لتقع في مطبات من الحركية الآلية ولكن لتحلق الى تعصير التراث بعفوية مرهفة الشحنات وبلغة متساجمة شاعرة ..

حمص - احمد اسعد العلي

أضواء ...

على الديوان الشعري الجديد

«حنين»

حسّان الكاتب

صدر مؤخرا ديوان شعر جديد للشاعر الاستاذ عبد المجيد تجار بعنوان "حنين"

ولقد عرفت الاستاذ التجار منذ نحو ثلاثين عاما يوم كان محافظا للسويداء حيث كنت أدرس في ثانويتي المزرعة والحكمة .. عرفته محافظا ناجحا واداريا محنكا أحبه الجميع لما لمسوه فيه من رعاية لمصالح المحافظة وكان يومها صديقا لوالدي المرحوم بدر الدين الكاتب (١٩٠٥ - ١٩٨٢) وهو رئيس لمحكمة الجنايات بدمشق .

توطدت صداقتي مع صاحب ديوان " حنين " بعد ان أصدرت الموسوعة الموجزة في ١٩٧١/٣/١١ حيث جمعت بيننا آنذاك، هواية مشتركة الا وهي حب الكلمة الجميلة والادب الاصيل . وقد اكبر شاعرنا عملي في الموسوعة الموجزة وشجعه وكان لتشجيعه اكبر الاثر في نفسي فقد اهداني مجموعة ابيات شعرية اعتز بها ما حييت .. كان حسان يا قلما يسجل مجدنا

ليضيف امجادا الى امجاد

وكان لي الشرف ان ضمن اللواء تجار هذه الابيات ديوانه الشعري "حنين" الذي صدر مؤخرا فيمطلع عام "١٩٨٧" والذي نحن في صدد الحديث عنه .

تلك مقدمة لا بد لي من ذكرها لبيان مدى علاقتي بصاحب الديوان .

وان من يطالع هذا الديوان الشعري يجد فيه / ٢٣ / قصيدة من الشعر العمودي تتصف كل واحدة منها بلونها الخاص .. فتارة يصف الشاعر حنينه الى بلدته ومسقط رأسه " دير عطية " وتارة أخرى يصف نضال دمشق .. وحين يتوفى احد أصدقائه ومن يعتز بهم يرثيه بقصيدة .. كقصائده في رثاء الوزير السابق اسماعيل قولي والمناضل مصطفى سعيد الجراح ، والشاعر الاستاذ انور العطار والوزير السابق الدكتور محمود سعدة ، وقائد الثورة السورية سلطان باشا الاطرش ورئيس الوزراء السابق الاستاذ صبري العسلي ، والعالم محمد وفا القصاب والطبيب العلامة الدكتور ابو اليسر عابدين والمطران ابي فانيوس زايد والشهيد الطيار غسان صلاح عبود والشاعر الزجال محمد سليم دعبول الذي كان عميد الشعر الزجلي فيمنطقة القلمون . هذا الى جانب القصائد الاخرى .

ومن يطالع هذه القصائد يلمس فيها صدق العاطفة وبعد الاثر في النفس الى جانب الجرس والبعد عن الحوشي والمغالطة كقوله في رثاء الشاعر انور العطار :

أبا هشام مصاب القوم ليس له
حد بفقدك يا اغلى غوالينا
غنيت تاريخنا ذكرى وموعظة
وحكمة فازدهت فيه مغانينا

ويتمثل صدق العاطفة عند الشاعر في رثائه لبطل الجمهورية العربية السورية النقيب الطيار غسان صلاح عبود حين يقول :

غسان يا بطلا يطرز راية
تحمي الحمى من نكبة العدوان
أنت الذي سجلت امجد صفحة
مع نخبة من صحبك الشجعان

والشاعر يضمن قصائده ابياتا من الحكمة تصلح لمناسبات مماثلة في كل زمان كقوله في رثاء فقيد قلمون الغالي الشاعر الزجال محمد سليم دعبول :

قهر العباد جميعهم في حكمه
مالا مرئ في الحكم اي خيار

الله اكبر كيف يقهرنا الـــردى
مهما أصبنا من علا وفخار
فكأنما جئنا الى هذي الدنا
صبحا لنتركها أصيل نهار

والشاعر لا يكتفي بالحديث عن مناقب المرثي بل يتحدث عن آثاره في تربية أنجاله فهو يتابع قصيدته بقوله :
أنجبت أشبالا غدو فخر الحمى
فكأنهم روض من الازهار
باهت بهم هذي الربوع وسجلت
لأبي سليم اطيب الاشعار
في بره لأبيه كرم بلدة
بالعلم والاصلاح والاعمار

والشاعر يهدي قصائده ايضا للقادة اللامعين كقصيدته التي اهداها لسيادة العماد مصطفى طلاس نائب القائد العام وزير الدفاع والتي كان مطلعها :
اسرائيل في لبنان
الله اكبر ما لشمس بلادي
لكأنها في مأتم وحداد
والافق ما للافق يبدو عابسا
متجهما متسربة بسواد
لبنان يغزوه عدو غادر
ويح الشهامة اين قوم الضاد

وتهز مشاعره حرب تشرين التحريرية فيصف نسور تشرين بقصيدة عنوانها " نسور تشرين " حيث يقول في مطلعها :
وطني طربت لصولة الطيار
يرمي العدو بمارج من نار
وسعدت بالنسر المحلق ينبري
ليرد كيد الآثم الغدار
وهتفت للبطل الذي صان الحمى
مما أعد له من الاخطار

وما أجمل قول الشاعر في قصيدته " نضال دمشق "
نضالك يا فيحاء في الكون خلدا
فتيهي على الدنيا فخارا وسؤددا
سموت بأهل الفكر والفضل والحمى
وباركت من يقضي الليالي تهجدا
وصنت شبابا لا تعصب عندهم
فما فرقوا ما بين عيسى واحمدا

وقد احيل صاحب الديوان على المعاش منذ ربع قرن فنظم قصيدة عنوانها " المتقاعد " حيث قال في مطلعها :
اذا شئت ان تحيا حياة كريمة
مجردة عن كل زيف وباطل
وتسبر غور الناس دون خديعة
وتمتحن الاخلاق دون حبائل
تقاعد تر الدنيا على غير وجهها
كأنك عشت العمر عيشة غافل

والملفت للنظر في شعر اللواء تجار انه مليء بأبيات الحكمة التي تصلح لكل مناسبة وزمان فلنستمع اليه حين يقول ببعض أبيات يصف فيها الموسوعة الموجزة :
قالوا الحسام سبيلنا لخلاصنا
من طغمة الاشرار والاوغاد
قلت الحسام سبيلنا لكنه
رهن بما للفكر من ارشاد
فالرأي يرسم للحسام طريقه
والفكر خير ذخيرة وعتاد

فان ما جاء في هذه الابيات من حكمة تصلح على مر الدهور والعصور ويمكن ان تذكر بمناسبات مختلفة غير وصف الموسوعة الموجزة وهو بذلك شاعرنا المتنبي الذي ترد في شعره الكثير من ابيات الحكمة .

واذا كانت هذه العجالة لا تفي بحق شاعرنا اللواء عبد المجيد تجار ، فلا بد من ذكر نبذة عن حياته الحافلة بالاعمال الجليلة .

ولد شاعرنا الاستاذ عبد المجيد التجار في بلدة دير عطية التابعة محافظة ريف دمشق في عام ١٩١٦م واتم دراسته الابتدائية في دير عطية والنبك والاعدادية والثانوية في دمشق ، ونال اجازة في الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٤٩ ، وكان قد عمل في التربية والتعليم معلما ثم انتسب لمدرسة مرشحي ضباط الدرك عام ١٩٤٢ .

استمر في جهازي الامن والادارة ، حتى رتبة لواء ، وقد تسلم المناصب الرفيعة فأصبح محافظا لدمشق ثم محافظا للسويداء وشارك في كثير من المؤتمرات الامنية والادارية والمهرجانات الادبية وذلك في جنيف عام ١٩٥٤ ، وفي دمشق عام ١٩٥٨ وفي الاردن عام ١٩٦٠ وفي يوغسلافيا عام ١٩٨٠

وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب منذ مطلع تأسيسه واسهم في كثير من الندوات الادبية والامسيات الشعرية وله مخطوط شعري بعنوان " صور وعبر " ، ومجموعة من القصائد يأمل ان يتم نشرها بعد هذا الديوان ان شاء الله .

واجد نفسي بعدما تقدم مشدودا ايضا الى التحدث عن الحكمة في شعر صاحب الديوان .. اذ انه لم يأت بقصيدة

خاصة بالحكمة وبنظراته التأملية .. بل بث الحكمة في قصائده على اختلاف انواعها ، وقل ان خلت قصيدة في الديوان من الحكمة ، فقد يجعل حكمته مقدمة للقصيدة ، وقد يختمها بها ، وقد يوردها في ثناياها ، واحيانا تراه يجمع بين الامور الثلاثة في قصيدة واحدة .

ولو اردنا ان نخلص بكلمة عن شعر ابي فاروق نقول بان شعره مثل حياته يمثلما عاناه خلال حياته اصدق تمثيل .. وهو صورة لحياته ففيه يتجلى طموحه ونظرته للحياة والثقافة واباءه وشجاعته ، وعقله وكرامته وولاؤه واخلاصه لمن يحب وبغضه لما يكره وفيه يتجلى تشاؤمه وسخطه وغضبه ولا غرو فصاحب الديوان شاعر السيف والقلم .

وشعر ابي فاروق يمثل نفسه وأخص ما تتسم به عاطفته هي الصدق فهو يمدح محبا او مخلصا .

ونلاحظ ان اول ما يميز شعره قوة شخصيته حتى لتبدو شخصيته في كل بيت وفي كل لفظة .. واذا رجعنا الى بناء القصيدة عنده مهما كان موضوعها وجدناه محكما منطقي التسلسل يظهر منه عقل الشاعر المفكر .

وبعد فاننا بانتظار ديوان ابي فاروق الثاني " صور وعبر " كي تعود به الى عبق الشعر العربي الاصيل .

ولا بد من الاشارة هنا الى كلمة صاحب مجلتي الثقافة الاسبوعية والشهرية ، الاديب الشاعر الاستاذ مدحة عكاش التي طالعناها في صدر الديوان والتي تحدث فيها عن ذكريات قديمة جمعت بين الشاعرين ، ذكريات نضال وكفاح في اواخر الثلاثينات في التجهيز الاولى يوم كانا طالبين داخليين يجمع بينهما الشعور بالاسرة الواحدة وتؤلف بينهما ومقاومة الاستعمار والمستعمرين يوم كانت بلادنا الحبيبة تلقى من ظلم الفرنسيين ، وطغيانهم الكثير الكثير .

ويقول الاستاذ عكاش : " واراني تحدثت عن اخي عبد المجيد تجار الاداري ،

وأني لأخشى ان يشغلني هذا الحديث عن موهبته الشعرية التي تفجرت ينابيع ثرة ، وفاجأ الناس بقصائد تحمل في طياتها الشعور الوطني الصادق والاحساس

المرهف والوفاء لاصدقائه ممن توفاهم الله الى رحمته ، او من بقي منهم حتى كان الوفاء ميزة خاصة يمتاز بها . وقد شفعت له هذه الشاعرية الفياضة ان يعتلي اكثر منابر دمشق في مهرجانات الشعر ، وان يكون احد الاعضاء العاملين في اتحاد الكتاب العرب .

ولقد قدم للديوان الاديب والشاعر المعروف الاستاذ عبد المعين الملوحي بكلمة شاملة جاء في آخرها : " والخلاصة اننا في ديوان " حنين " نكتشف شاعرا مطبوعا له صفاته الذاتية وتطلعاته القومية وله اسلوبه المشرق ولغته الصافية ، ونكتشف فيه قبل كل شيء انسانا خرج من قرية دير عطية ، وتقلب في مناصب رفيعة كثيرة وسكن المدن الكبيرة ولكنه ظل في قبل كل شيء هذا الانسان البسيط الذي ينقل اليك كل ما يجول في عقله وقلبه من افكار وعواطف لتشترك معه في أفكاره وعواطفه واعتقد انك فعلت ذلك فظفرت بكثير ثمين .

بقي علينا ان نقول بان الديوان من منشورات دار مجلة الثقافة في دمشق صمم غلافه الانيق الدكتور خلدون التجار وقد خط قصائده الديوان الخطاط السيد سهيل سليمان وقد صدر في مطلع هذا العام ١٩٨٧ .

حسان بدر الدين الكاتب
دمشق

يـا أُمِّي

عبد المجيد النجار

تَفَطَّرَ قَلْبِي بَعْدَ فَقْدِكِ يا أُمِّي   وضاقَتْ بِيَ الدُّنْيا وطاشَ بِها سَهْمِي

بَكَيْتُكِ مِنْ قَلْبِي وَأَدْمَيْتُ مُقْلَتِي   فَتَبًّا لِسَهْمِ المَوْتِ كَمْ جُرْحُهُ يُدْمِي

بَكَيْتُ الَّتِي إِنْ قُلْتُ آهٍ تَأَوَّهَتْ   وَقالَتْ بِرُوحِي أَفْتَدِيكَ مِنَ الهَمِّ

تُقَلِّبُنِي فِي صَدْرِها وَتَضُمُّنِي   فَأَسْعَدُ فِي ضَمٍّ وَأَنْعَمُ فِي لَثْمِ

حَنانَيْكَ يا رَبِّي فَأَيْنَ حَنانُها   يُبَدِّدُ مِنْ حُزْنِي وَيَكْشِفُ مِنْ غَمِّي

وَأَيْنَ رِضاها وَهُوَ سُؤْلِي وَمَطْلَبِي   يُجَدِّدُ مِنِّي ما تَراخَى مِنَ العَزْمِ

يَسِيرُ مَعِي أَنَّى تَسِيرُ خَواطِرِي   وَأَرْقَى بِهِ حَتَّى أَصِيرَ إِلَى النَّجْمِ

إِذا قُلْتُ مَنْ أَهْلِي فَما لِيَ غَيْرُها   لِدَرْسِ أُمُورِي فِي تَرَوٍّ وَفِي فَهْمِ

فَلَيْسَ غَرِيباً أَنْ تَقُودَ مَسِيرَةً ... كَبِيرَةُ قَوْمٍ بَارَكَتْ رَايَةَ القَوْمِ

فَفِي كُلِّ جِيلٍ نِسْوَةٌ قَدْ تَجَاوَزَتْ ... مَفَاخِرُهُنَّ الجِيلَ بِالفَضْلِ والعِلْمِ

فَمَا انْتَقَصَتْ مِنْ جُرْأَةِ القَوْمِ خَوْلَةُ ... وَقَدْ ثَأَرَتْ قَبْلَ الرِّجَالِ مِنَ الخَصْمِ

وَهٰذِي هِيَ الخَنْسَاءُ سَادَتْ قَبِيلَةً ... وَكَانَتْ لَهَا فِي الحَرْبِ دِرْعاً وَفِي السِّلْمِ

وَفَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ دُنْيَا مِنَ التُّقَى ... وَمَرْيَمُ تُؤْتَى الرِّزْقَ بِالصَّبْرِ وَالصَّوْمِ

فَمَا الفَخْرُ إِنْ قُلْنَا سُهَيْلُ مُذَكَّرٌ ... وَلَا العَيْبُ فِي الشَّمْسِ المُؤَنَّثَةِ الاِسْمِ

فَدِفْءُ سُهَيْلٍ لَا يُحِسُّ بِهِ امْرُؤٌ ... وَلٰكِنَّ دِفْءَ الشَّمْسِ يَشْفِي مِنَ السُّقْمِ

رَبِيعُ حَيَاةِ المَرْءِ أُمٌّ إِذَا مَضَتْ ... مَضَتْ مَعَهَا دُنْيَا السَّعَادَةِ وَالنُّعْمِ

لَوَ انِّي فَقَدْتُ الأَهْلَ وَالصَّحْبَ كُلَّهُمْ ... وَعِشْتُ وَحِيداً فِي الوَسَاوِسِ وَالوَهْمِ

لَمَا زَالَ جُرْحِي طُولَ عُمْرِيَ نَازِفاً ... لِفُقْدَانِ مَنْ كَانَتْ هِيَ الرُّوحَ لِلْجِسْمِ

إذا ابْتَسَمَتْ كانَتْ حَياتي ابتِسامَةً ... وإن عَبَسَتْ أُثْقِلْتُ بالحَدَثِ الجَهْمِ

وإنْ حَدَّثَتْ أَصْغى لَها جُلَساؤُها ... لِيَسْتَمْتِعوا بالعِلْمِ والأَدَبِ الجَمِّ

إذا قَطَعَتْ في رأيِها كانَ صائِباً ... وإنْ أَبْرَمَتْ حُكْماً فَبورِكَ مِنْ حُكْمِ

• • •

عَزائي لِكُلِّ الفاقِدي أُمَّهاتِهِم ... فَهُمْ شُرَكائي في التَّفَجُّعِ واليُتْمِ

فَمِنْ بَعْدِهِنَّ الكَوْنُ حُزْنٌ وظُلْمَةٌ ... ويُصْبِحُ طَعْمُ العَيْشِ أَرْدى مِنَ السُّمِّ

فَما لِلْمَنايا تَسْتَبيحُ دِيارَنا ... وَما في الحِمى مَنْ يَدْفَعُ الخَطْبَ أو يَحْمي

تُسَدِّدُ سَهْماً لِلضَّحِيَّةِ قاتِلاً ... وما مِنْ مِجَنٍّ يَتَّقينا مِنَ السَّهْمِ

ولا يُرْجِئُ المَوْتَ المُحَقَّقَ فارِسٌ ... ولا حاكِمٌ يُرْغي ويُزْبِدُ في الحُكْمِ

ولا ما بَنَيْنا مِنْ حُصونٍ مَنيعَةٍ ... تُطاوِلُ بِتيهٍ شامِخاتِ الذُّرى الشُّمِّ

فَمَهْما اكْتَشَفْنا مِنْ غَوامِضِ كَوْنِنا ... فَنَحْنُ أَمامَ المَوْتِ كالصُّمِّ والبُكْمِ

وَنَمْضِي إلى دارِ البَقاءِ كأنَّنا ... نِيامٌ بدُنْيانا صَحَوْنا مِنَ النَّوْمِ

وَيَبْقى بِدارِ الأَهْلِ والصَّحبِ رَسْمُنا ... فيَبكيهِ مَنْ يَبْكي وَيَرميهِ مَنْ يَرْمي

(فإنْ لمْ يَكُنْ إلاّكَ يارسْمُ ذاكِري ... لَدى الصَّحْبِ إنْ بِنّا فلاكُنْتَ يارَسْمي)

لِكُلِّ امْرِئٍ يَوْمَ الحِسابِ رَصيدُهُ ... إذا نُصِبَ الميزانُ في ساعةِ الحَسْمِ

فَيا سَعْدَ مَنْ غَطّى الحَياةَ صَلاحُهُ ... ويا بؤسَ مَنْ لمْ يَجْنِ مِنها سوى الإِثْمِ

فَذِكْرُ امْرِئٍ بالمَدْحِ بَعْدَ رَحيلِهِ ... لَمُخْتَلِفٌ جِدّاً عَنِ الذِّكْرِ بالذَّمِّ

• • •

هِيَ الأُمُّ دُنْيا مِنْ حَنانٍ وَرِقَّةٍ ... وَقَلْبٌ كَبيرٌ فاضَ بالحُبِّ والحِلْمِ

فَيارَبُّ ما أَحْلى الحَياةَ بِقُرْبِها ... ويارَبُّ كَمْ تَقْسو الحَياةُ بِلا أُمِّ

تعاريف القدماء للبلاغة

جمع ودراسة: قصي عسكر

مقدمـــــة :

لقد اختلفت أقوال الباحثيـــــن القدامى في تعريف كلمة " البلاغـــة "، فلم يستطيعوا ان يتفقوا على تعريـــف منطقي واحد يعد أنموذجا ، تأخـذ بـه جميع كتب الادب والبلاغة ، كما اتفـــق النحويون مثلا ، على تعريف " النحـو " تعريفا تراه هو هو في أي كتاب نحوي .

والحقيقة ان كلمة " البلاغـــة " مفردة مرنة ، يحاول الاديب ان ينصـرف بها حسب تفكيره ، وخياله ، كذلــك الفيلسوف ، وربما يعرفها آخر من واقـع اجتماعي .

وقد دفعني اختلاف الاراء لأن أجمـع هذه المقولات من كتب مختلفة ، وان أقـف عند بعضها ، خاصة ما أجده يستحــق الوقفة ، لكي أدرسه حسب اجتهـــادي ، ولعلني أكون مصيبا ، وربما أنحاز عن جادة الصواب في رأي ما ، لا عن تعمد ، وعذري في ذلك سعة الموضوع ، وتشتته في بطون الكتب ، مما حدا بي الى ان أبـذل غاية جهدي ، لجمع هذا الشتات المتناثر

البلاغة لغــة :

بالرجوع الى جذر الكلمة نـرى ان " بلغ " المكان وصل اليه ، وكـــذا شارف عليه ، والبلاغ الايصال ، والبلاغـة الفصاحة (١) ، ورجل فصيح أي بليـــغ ، ولسان فصيح ، اي طلق (٢)

غير ان دخولنا الموضوع من بـــاب اللغة ، بادئ ذي بدء ، يضعنا أمـــام أمور لايمكن تجاهلها ، منهـــا ان القواميس اللغوية هي من وضع المتأخرين، ثانيها ان التعريف فيها ليس تعريفـــا اصطلاحيا ، اي علميا ، اذ المعروف ان التعريف المنطقي يراعي بعض المسلمات ، منها أن يكون جامعا مانعا ، لا يوهـــم السامع ..

ثالث هذه الملاحظات ان البلاغـــة اختلطت بمرادفتها كلمة " فصاحة " هـذا الخلط أثر في الوصول الى تعريف محدد ، ومعين لكلمة " البلاغة " وسبب الخلـط ، كما نعرف ، ان الفصاحة جنس قريـــب للبلاغة .

اللفظ ينقسم الى ماله معنـــى ، وما ليس له معنى ، والذي له معنى الى قسمين " فصيح " و " غير فصيح " والفصيح الى قسمين " بليغ " وغير بليغ " كمـا يبينه الجدول الاتي :

اللفـــظ

ماله معنى	ماليس له معنى
ـ فصيح	
ـ غير فصيح	غير فصيح
بليغ	غير بليغ

فاذا قلت ، على سبيل المثال ، " تعال غدا " كان كلامك فصيحا ، لكنـه غير بليغ ، أما اذا قلت ، " ابتسـم القمر " فالكلام بليغ ، بعد ان روعـــي فيه شرط الفصاحة .

فالبلاغة ، اذا ، نوع لجنس قريب هو الفصاحة ، لكن أصحاب القواميـــس اللغوية يتجاوزون ، ولا يعرفـــون البلاغة ، بأنها فصاحة من باب تعريـف الجزء بالكل ، الا ان التعريف ناقص من الناحية المنطقية ، وهو يغفل الفصـل الذي يعد شرطا من شروط التعريف السليم .

فالخلط في التعبير ـ من الناحية اللغوية ـ أدى الى ان يترك اثره فـــي نظر الادباء والمهتمين بعلوم اللغـــة العربية ، فلم يستقر رأيهـم علـــى تحديد كلمة البلاغة ، فالتبس عليهـم اقترانها بكلمة الفصاحة ، لقـــرب المرادفة ، حافزهم لذلك محاولـــة التخلص من تحديد شيء مبهم بالرجوع الى أقرب لفظ اليه .

العصر الاسلامي والاموي :

وردت مشتقة الفعل ، " بلــغ " في القرآن الكريم ، " هذا بـــلاغ للناس " (٣) ، ووردت كلمة البيـــان في قوله تعالى " الرحمن خلق الانســان علمه البيان " (٤) ، بالمفهوم اللغوي ايضا ، فمن المعروف ان البيان نوع من انواع جنسه القريب ، وهو البلاغة .

وقد " سئل النبي صلى الله عليه وسلم : فيم الجمال ؟ فقال في اللسان ، يلزيد البيان "(٥) .

سنكون امام امرين مهمين ، الاول علم الجمال ، ليس بمفهومه النظـري ، أي البحث الذي اختلف فيه منذ العهــد اليوناني الى الان ، وكتبت فيــــه النظريات المختلفة ، بل ، أين يوجد الجمال ؟ فذهن السائل ، لم يكــن منصرفا ساعتئذ الى التفكير في ماهيــة الجمال ، انما في وجود الشيء الجميل .

الحقيقة الثانية ، ان معجــزة الرسول " ص " كانت في القرآن ، وهــو شيء متفق عليه ، لأن المجتمع الجاهلي يمثل الانموذج المتكامل للنضج الادبــي واللغوي ، الذي تطورت اليه ثقافــة العرب .

فاللسان هو الجمال ، وهـــو البيان اخيرا ، ونحن نفهم ان البيـان ظهور ووضوح ، وهو يعني ، بالنسـبة لنا ، اصطلاحا ، أحد أنواع البلاغة .

وفي حديث آخر للرسول " ص "" أنا أفصح الناس بيد أني من قريش " .

وقال الامام علي ،في موقف مفاخرة " نحن أفصح وأنصح وأصبح "(٦) .

مما سبق نستنتج ان المفاخــرة جاءت بكلمة " الفصاحة " جنس البلاغــة القريب ، فالرسول " ص " والامام علــي يفتخران بـ " أفصح " و ومرد العلة الـى ان العصر الاسلامي كان أقرب الى البداوة منه الى التحضر ، والتوكيد على عروبة اللسان يأتي بكلمة قريبة المعنى مــن طلاقة اللسان العربي ، يتحقق منهامفهوم العموم الشامل ، لكونها حاوية جميـع الانواع المختلفة لبلاغة الكلمة .

للسبب ذاته ، كانت الفصاحـــة المقياس الاول في محاولة ابي بكر لجمع القرآن الكريم فقد " استظهر ابو بكـر بطلب الشهود تأكيدا لانه اذا انضمــت الشهادة الى الفصاحة الظاهرة ثبـت ان ذلك الكلام من القرآن "(٧) .

ثم نتوقف في هذا العصر ، عنـد نصوص حاولت ان تعرف كلمة " البلاغـــة " وهي بلا شك محاولات بدائية لاتستند الـى قاعدة علمية ، او هي أقرب ما تكــون الى الفطرة منها الى المنطق .

هذه التعاريف حسب التسلسل الزمني

الامام علي:

النصر بالحجة ، والمعرفــة ، بمواضع الفرصة ، ومن النصر بالحجــة ان تدع الافصاح بها الى الكناية عنهـا اذا كان الافصاح اوعر طريقة ، وكانـت الكناية أبلغ في الدرك واحق بالظفــر (٨) .

الاحنف بن قيس :

الايجاز في استحكام الحجـــج ، والوقوف عند ما يكتفى به (٩) .

عمر عبد العزيز :

البليغ من اذا وجد كثيرا مــلأه واذا وجد قليلا كفاه (٣) .

ان اول شيء التفت اليه الامـام علي هو الحجة التي تعني الاقناع بالفكرة حسب التسلسل المنطقي في محاولة غلبــة الخصم بالبرهان ، ثم اللجوء الــى الرمز ، ان كان التصريح لا ينفـــع ، والتوكيد على المعاني غير المباشرة ، كذلك كان رأي الاحنف .

بالطبع لم يأت التوكيد على الحجة اعتباطا ، فالعصر الذي عاش فيه الرجلان كان مثقلا بالاضطراب السياسي ، وظهــور الفتن ، وتأسيس الاحزاب ، كــل هــذه الاحداث تتطلب اعلاما قويا مؤثرا فـــي السامع ، فأية فئة او حزب ، تحاول ان تكسب عددا من الانصار ، لا تحقق نجاحـا مالم تراع الحجة في قولها ، لتستمــد ديمومتها من انضمام الناس اليها .

هذا عكس مانراه في تعريف عمــر ابن عبد العزيز ، فعهده ، وهو فـــي الحكم ، كان من اكثر الفترات استقرارا لا سيما ، اذا علمنا ان الخوارج ، وهم أشد الفئات تطرفا ، لجأوا الى الهدنة في عهده ، اذا البلاغة برأي الثلاثة هي:

١- الكلام المترابط المبتعـــد عــن المباشرة المقنع .

٢ - الكلام التام .

٣ - الابتعاد عن العي ، والقدرة علــى الايجاز .

مما مر نستطيع ان نستخلص بعـض الملاحظات وهي :

٢ - المحاولة الاولى لجمع القرآن الكريم كانت تستند الى فصاحة الكلام بوجــود شهود .

٢ - المفاخرة بين العرب كانت تــرد بالفصاحة وليست بكلمة أبلغ .

٣ - التعاريف السابقة شخصية ، والالكان

قد اتخذ اي منها مصطلحا خاصا ، تتفق عليه كتب الادب قديمها وحديثها نظرا لأسبقية التعريف الزمنية .
٤ ـ التعاريف السابقة ركزت على جوانب معينة ، اشتملت عليها البلاغة ، ولم تحط بكل أنواع هذا العلم ، فكأنها تعرضت الى محتوياته ، ولم تفسر ماهيته

العصر الثاني :

في العصر العباسي نشطت حركة الترجمة والتأليف ، فتوسع البحث العلمي ، وقد طالعتنا تعاريف مختلفة للبلاغة ، حاولنا حصرها في عناوين ثابتة كي نتمكن من دراستها دراسة وافية .
هذه الابواب هي :
١ ـ التعريف الشخصي
٢ ـ آراء المجهولين .
٣ ـ آراء غير العرب .
٤ ـ التعريف الاخلاقي .
٥ ـ التعريف العلمي .

التعريف الشخصي :

ونقصد به التعريف الذي يعبر عن وجهة نظر صاحبه فقط ، ولا يعتد به في الكتب العلمية ، ولا يمكن ان يكون أساسا لأية وجهة نظر منطقية .

١ـ الخليل ابن احمد الفراهيدي :

قال في البلاغة :
ايضاح المعضل ، وفك المشكل (١١)
البلاغة كلمة تكشف عن البقية (١٢)
كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة (١٣) .
البلاغة ما قرب طرفاه وبعد منتهاه (١٤)
نلاحظ ان الرجل عرف البلاغة في اربعة مواضع ، بمفاهيم مختلفة ، على ماذا تدل محاولاته ؟ ان فكر الرجل ، بالتأكيد ، لم يكن مستفزا ، على هدف معين لتحديد الكلمة ، فنراها مرة تعني عنده السهولة والابتعاد عن التعقيد ، ومرة الايجاز في الكلام ، او المعنى اللغوي ، ورابعة في تمام المعنى ، وبعد غور الكلمة .

٢ ـ خلف الامر :

البلاغة لمحة دالة (١٥)
الرجل راوية شعر ، حقل اختصاصه يعني الاطلاع الواسع على التراث العربي ، ومن طبع الراوية ان يكون ذواقا لكثرة ما يحفظه ، فهو يعرف البلاغة تعريفا أقرب ما يكون الى الرمز، لأن الرمز هو اللمحة ، على أننا نعتقد أيضا ان كلمة لمحة ، المقصود بها هنا ، الايجاز في القول ، والابتعاد عن التفصيل في الكلام .

٣ ـ الحسن بن سهيل :

سأله المأمون عن البلاغة فقال : " ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة "(١٦).
لعلنا لا نكون مغالين اذا قلنا ان التعريف السابق مثار جدل في حياتنا الادبية المعاصرة ، وهو الجدل القائم على السؤال الاتي : بأية لغة نكتب ؟ كيف نوصل الى الجمهور أفكارنا ؟
نحن نعيش في مجتمع يتكون من الامي والمثقف والمتعلم ، فبأي اسلوب تظهر كتب الادب مواضيعها ؟
كيف نكون لغة موحدة لجميع شرائح المجتمع المتباينة ؟
الحقيقة ان الحسن بن سهل تطرق الى الموضوع قبل الف سنة ، فهو وزير ، وموقع وظيفته يلزمه ان يرافق الملوك ، وان يتصل بالشعب ، الملوك تربيتهم تدفعهم الى الترفع عن العامة بالاسلوب والكلام .
أما العامة ، فأسلوبهم في الحياة ، وحديثهم ، أقل شأنا ، فالوزير المعرف ينطلق من حاله هو ، بحيث يلزمه ان يتخذ طريقا وسطا بحيث لا ينفر منه المأمون ، ولا يبعده عن عامة الناس ،
وقد وردت الفكرة نفسها بتعبير مختلف ، فقد " قال سهل بن هارون : لو ان رجلين خطبا او تحدثا ، او احتجا او وصفا ، وكان احدهما بهيا ولباسا... وكان الاخر قليلا قميئا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم ..(١٧)
وذا يعني ان الفكر العربي لم يغفل الوضع الاجتماعي ، سواء بالنسبة للطبقة ، او الواقع اللغوي ، اوهيئه المتكلم .

٤ ـ خالد بن صفوان :

ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها اصابة المعنى ، والفزع بالحجة (١٩).
انه يعرف البلاغة مستفيدا من تعريف الامام علي والاحنف ، فمثلما نشأت في العهد الاموي عقد سياسية ،

فقد زادت هذه العقد في العصر العباسي، فانصرف بعض المعرفين الى تحليل الامور من وجهة نظر سياسية او فلسفية حسب موقعهم في المجتمع .

٥ - ابن عتيبة :

البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير (٢٠) انها وضوح المعنى والايجاز ، والغلبة في الحجة ، وقد رأينا كيف ان هذه الكلمة تكررت كثيرا في كتب الادب .

٦ - ابراهيم الامام :

الجزالة والاطالة (٢١)
الرجل ممن اهتموابالسياسة ، وقد شغلته احداث عصره ، فراح يكافح من أجل اسقاط حكم ، والدعوة الى اقامة دولة جديدة ، فهو يركز على امرين مهمين :
الاول : فخامة الكلام ، ليجد أذنا صاغية ، تتقبله .
الثاني : الاطالة ، فلم نجد ، قبل ابراهيم الامام من يعرف البلاغة بأنها اطالة ، بل العكس ، عرفت بانها ايجاز فياكثر من موقع ، لكنه صاحب شعارات ، وداعية ثورة ، فالايجاز لا يناسب دعوته وقد يجلب عليها الضرر ، لذلك وجد في الاطالة السبيل لنشر شعارات هذه الدعوة

٧ - العتابي :

قيم الكلام العقل ، وزينته الصواب ، وحليته الاعراب ، ورائضه اللسان ، وجسمه القريحة ، وروحه المعاني (٢٢)
العتابي شاعر ، دافعه الخيال ، يخيل للذي يقرأ هذا التعريف انه امامعبارة شعرية ، لا أمام تعريف ، لذلك نراه ، موضع ثان ، يعرف البلاغة ، تعريفا آخر ، أقرب الى الرقة والخيال ، انظر التعريف الاخلاقي) .

٨ - ابن المعتز :

البلاغة بلوغ المعنى ، ولما يطل سفر الكلام (٢٣).
سنناقشتعريف الشيء بنفسه ، اما الشطر الثاني فالمقصود به الايجاز .

٩ - ابنالاعرابي :

البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير (٢٤).

١٠- عبد الله بن محمد بن جميلالمعروف بالباحث :

البلاغة الفهم والافهام ، وكشف المعاني بالكلام ، ومعرفة الاعراب ، والاتساع في اللفظ والسداد في النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان في الاداء، وصواب الاشارة ، وايضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الاكثار، وامضاء العزم على حكومة الاختيار ، قال : والبلاغة تخير اللفظ في حسن افهام (٢٥).
التعريف الاول مطول يتطرق كغيره الى شرح مواضيع علم البلاغة لا الى ماهية ذلك العلم ، اما التعريف الثاني ،فهو أدق من الاول ، وان كان لا يفي بالمعنى

١١- الكندي :

ركنها اللفظ ، وهوعلى ثلاثة انواع ، فنوع لا تعرفه العامة ، ولا تتكلم به ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو أصدها (٢٦) .
الرجل فيلسوف معروف ، ولابد ان ينسحب تخصصه على أقواله ، فتعريفه ما هو الا نفحة فلسفية ، ما الذي لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ؟
انه الفلسفة ، ولا شك ، الفكرة الثانية هي الكلام الوسط ، اما النوع الثالث ، فهو البلاغة المتمثلة في السهل الممتنع الذي لا تقدر عليه الافئة خاصة .

١٢ - ابن المقفع :

اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ومنها ما يكون شعرا ، ومنها سجعا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها مايكون جوابا ، ومنها ما يكون الحديث ومنها مايكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الاسلوب السابق يذكرنا باستطراد ابن المقفع في كليلة ودمنة ، فكلنا يعرف من قراءة قصصه ، كيف انه يستطرد من قصة الى ثانية ، ليؤكد فكرة سابقة ، فبعد كل هذا التطويل ، والتقسيم ، يقول، أخيرا ، الايجاز هو البلاغة .

١٣ - ابو منصور الثعالبي :

قال بعضهم : البلاغة ما صعب على التعاطي وسهل على الفطنة ، وقال : خير الكلام ما قل ودل ، ولم يمل ، وقال : ابلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر اعجازه ، وتناسبت صدوره واعجازه ، قال : وقيل البليغ من يجتني من الالفاظ نوارها ، ومن المعاني ثمارها (٨).

١٤ - الحسن بن وهب :

والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، من اذا حاول صيغة كتاب ، سالت من قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت معادنها وندرت من مواطنها من غير استكراه ولا اغتصاب (٢٩) .

لقد عالج الحسن بن وهب المسألة من زاوية واحدة ، ونعني بها " التكلف " فالبلاغة ، عنده هي ماجاء على السجية ، منطلقا في حكمه من خبرته في مجال الكتابة ، فهو كاتب رسائل مشهور .

من الممكن ان نقول ، بعد كل هذا ان هذه التعاريف الشخصية جاءت على لسان رجال اختلفت حقول اختصاصهم ، وكل منهم نظر الى الامر من زاوية معينة ، لأنهم كانوا يشكلون نماذج معينة من مجتمعهم ، منها :

١- اللغوي ،
٢ - راوية الشعر .
٣ - الوزير .
٤ - رجل السياسة .
٥ - الشاعر .
٦ - الفيلسوف
٧ - القاص
٨ - الكاتب

وقد ترك حقل الاختصاص الوظيفي اثره في التعريف ، بلا شك ، كما رأينا في تعريف الكندي مثلا .

٢ - آراء لمجهولين :

أوردت كتب الادب ، آراء في البلاغة ،لم تنسبها لقائل معين ، تناثرت في مواضع مختلفة ، نقتطف منها : قليل يفهم ، وكثير لا يسأم .
اصابة المعنى وحسن الايجاز.
معان كثيرة في الفاظ قليلة .
اصابة اللفظ واشباع المعنى (٣٠).

البلاغة ما اجتيازه فساده (٣١)
الايجاز في غير عجز والاطناب من غير خطل (٣٢).

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطويل القصير، يعني بذلك القدرة على الكلام (٣٣).

من الواضح ان الاراء السابقة ، انصرفت الى جانب واحد ، هو الايجاز ، وكأن البلاغة انحصرت في نوع واحد من انواعها ، والذي يؤلف جزءا من علم المعاني .

هذا التصور له سبب وجيه ،فالعربي ابن بادية ، والصحراء قاسية بطبعها ، حادة خشنة ، فعندما تحرق الشمس اللاهبة اي فرد ، ويدخل خيمته ، لا يقول : اعطني قدح ماء ، بل يقول : ماء ، يضيق نفسه ، لا نراه يقول :ما اشد حرارة الشمس ، بل يقول : الهاجرة .. وهكذا ..

٣ - تعاريف غير العرب :

نقلت كتب الادب القديمة آراء الاجانب في البلاغة ، ان هؤلاء المعرفين ينطلقون من واقعهم اللغوي ، وظروف نشأة لسانهم ، والافكار المتداولة في مجتمعهم .

ان باحثينا الاوائل نقلوا تلك الجمل ، محاولين ان يظهروا هذه التعاريف قريبة من فكرنا ، وكأنها تنطبق على لغتنا ، بينما نحن لانعرف ، بالتأكيد ، طبيعة اللغة الفارسية ، او الهندية او اليونانية ، علينا ان نلاحظ ان هذه الاراء انتشرت بعد نشاط الترجمة ، اي ان الباحث العربي حاول ان يعرب النص المترجم فكرا ولفظا ، لكي يطبقه على بلاغتنا ، فمحاولته ليست للمقارنة .

الرومي : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة (٣٤).
الهندي : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة (٣٥)
الرومي : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة (٣٦).
الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل . (٣٧)
ارسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة (٣٨)
انو شروان لبزجهر : متى يكون الغبي بليغا ؟ فقال : اذا وصف بليغا (٣٩)
الهندي : هي البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم ان يدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح ، اوعر طريقا ، وربما كان الاطراق عنها ابلغ في الدرك ، واحق بالظفر (٤٠).

أكثر التعاريف المارة الفاتـــا للنظر التعريف الاخير الذي ورد علـــى لسان الامام علي وذلك اعتقده ان نسبته لاهل الهند فيها شيء من الجور ، لان الهنود اهتموا بالفلسفة منذ القـــدم ، والفلسفة تقوم على الحجة والمنطـــق ، والمعروف عن الامام علي ، انه تطـــرق الى امور فلسفية لعلمه الواســـع ، ولواقع عصره ، فنسب التعريف السابق اليهمرة ، والى الهنود مرة اخرى .

والواقع ان هذه التعاريف ، كما قلت ، عربية ، مائة بالمائة ، نسبت عن طريق الخطأ وربما التعمد الى لسان قوم يختلف عن اللسان العربي ، ولا ادل على ذلك من ان التعبير الواحد قد ينسب الى جنسيتين مختلفتين ، كما قرأنـــاه من النصوص .

٤ - التعريف الاخلاقي :

نعني به التعريف الموضوع لغاية تعليمية لا غير ، وهو كالتعاريف السابقة ناقص لانه يتطرق الى جانب واحد مـــن جوانب علم البلاغة .

١- بشر بن خالد :

البلاغة التقريب من المعنى البعيـــد ، والتباعد عن خسيس الكلام (٤١)

٢ - عمرو بن عبيد :

ما بلغك الجنة ، وعدل بك عن النار .

٣ - العتابي :

البلاغة تصوير الباطل في صورة الحق(٤٣)

المحوران الاول والثاني لا يشكلان ايـــة اهمية ، لذلك نتوقف عندهما قليـــلا ، فبشر يدفعه الهدف الاخلاقي الى الابتعـــاد عن الالفاظ المبتذلة ، والدعوة الـــى الالتزام بالفكر الهادف ، ومحاولـــة تقريب ما صعب على السامع .

اما عمرو فتستهلك تعريفه الغايـــة الاخلاقية ، وكأنه يضع الخطوط العامـــة للسلوك الانساني ، فلو حذفنا كلمـــة " البلاغة " ووضعنا بدلها " العمـــل الصالح " لاستوفت الجملة معناهـــا دون اخلال ببنيتها .

غير ان التعريف الثالث أقـــرب الى الفلسفة ، وبالذات الفلســـفة السوفسطائية ، التعريف يضم ثلاث كلمات فقط هي : التصوير، الباطل ، الحق ، كلمة واحدة مفردة ، وكلمتان من كلمات الاضداد

البلاغة = تصوير

حق باطل

التقاء الاضداد = اخذ كل ضد محل الضـــد الاخر .

قلنا - قبل قليل - ان العصر عصر علم وبحث وترجمة ، ولا بد ان تتسرب الى المهتمين بادب ذاك الزمان بعـــض الملامح الفلسفية ، لمن ترجم لهم مـــن الامم الاخرى ، القيم ضائعة عنـــد السفسطائيين ، والجدل عندهم يلبـــس ثوب الخطأ والصح ، حتى يغلب المتحاور صاحبه وان كان الاخير على يقين ..

لا بد ان العتابي قد تأثر برأي هؤلاء ، يزداد برهاننا حجة ، اذا علمنا ان اصل السفسطة في اللغة اليونانيـــة كانت تعني معلم البلاغة .

لتوضيح الامر ، نقول ، حيـــن يلبس الباطل ثوب الحق ، والخير لباس الشر ، او القبيح رداء الحسن ، يبدو في العمل الفني مستساغا ، مثال علـــى ذلك ، مشهد الكلب الميت يقزز النفس ، لكن الرسام او الشاعر قد يصوره بعمـــل نستسيغه ، وننعم النظر فيه بلذة وشغف .

يحق لنا ، بعد ان عرفنا ابعاد الرأي الاخير ، ان نقول انه تعريـــف مستمد من فلسفة السفسطائيين ، ومتأثرة بالفكر اليوناني القديم .

٥ - التعريف العلمي :

تكاد هذه التعاريف تكون أفضـــل ما انتهى اليه البحث في علم البلاغـــة ، وان كنا لا نستطيع ان نقر تعريفا واحدا منها ، يكون الاساس العام الذي نأخذ به على انه حقيقة لا تقبل الجدل ، وان تحقق الشرط العام في التعريف الاخير كمـــا سنرى فيما بعد .

١ - ابو هلال العسكري :

سميت البلاغة بلاغة ، لانها تنهـــي المعنى الى قلب السامع فيفهمه .. وتسميتنا المتكلم بليغ توسع ، وحقيقة ان كلامه بليغ (٤٤).

يستفيد المعرف كما نستشف من النص مـــن جذر الكلمة اللغوي ، ان الكلمة تتطور وحين تنتقل من معنى الى اخر ، يجـــب أن يكون هناك ربط بين المعنـــى الام والجديد ، وما دام " البلاغ " هـــو الوصول ، او مقاربة الوصول ، فالبلاغة اذا الوصول الى القلب ، ولنقل ماشئنا

في الكلام الذي يصل الى القلب : الفصيح، الجميل ، المتناسق ..

غير ان ابا هلال العسكري يعرف البلاغة في موضع اخر :
رجل بليغ : اذا كان يبلغ حاجته بكلام حسن الصورة مقبول العبارة (٤٥).
وفصيح : اذا كان يفصح عن نفسه بلفظ حسن فخم .
انه يعود ، ويعرف الشيء بنفسه ، البليغ بليغ ، والفصح فصيح ، وتعريف الشيء بنفسه ، - كما تعلم - ليس علميا وان كان المعرف واضحا .
التعريف الاول اكثر دقة ، ولعل الرجل : ألف " الصناعتين " بعد " التلخيص " .

٢ - ابن قدامة :
البلاغة ثلاثة مذاهب : المساواة وهي مطابقة اللفظ والمعنى لازائدا و لا ناقصا ، والاشارة وهي ان يكون اللفظ كاللمحة الدالة ، والتذييل وهو اعادة الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، ليظهر لمن لم يفهمه ، ويتأكد عند فهمه (٤٧) .
مما يعاب على الرأي السابق طوله المفرط ، فمن شروط الرأي ان يكون قصيرا لكي يفهم ويحفظ والعيب الثاني هو ان هذه العبارات تشرح ابواب البلاغة المنضوية تحت علومها ، والابواب التي تطرق اليها ابن قدامة هي المساواة ، والايجاز ، والنشر .

٣ - قدامة بن جعفر :
القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان (٤٧).
الكلام السابق هو اقرب التعاريف الى التكامل ، والذي مهد الطريق لافضل رأي قيل في البلاغة من قبل القزويني .
وبامكاننا ان نتلاعب بالكلام قليلا ، ليكون الرأي اكثرعلمية ، فنقول :
البلاغة هي القول الفصيح المتناسق المحيط بالمعنى المقصود .
فالقول الفصيح : جنس قريب للبلاغة .
المتناسق : يخرج من كلامنا الكلام الفصيح غير المتناسق لان الفصاحة قد تكون في المفردة ، وقد تكون في الحجة .
المحيط بالمعنى المقصود : يخرج ماعجز عن التعبير ، ويدخل فيه المعبر عن معناه بقدره ، والموجز المعبر عن المعنى ، واللمحة الدالة .

٤ - القزويني :
واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته (٤٨).
واما فصالحة الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات، والتعقيد مع فصاحتها (٤٩).
ان تعريف القزويني اكثر تلك الاراء وضوحا ، وتكاملا ، لانه استطاع ، ان يستوعب رأي من سبقه ، وان يكثفه ، اضف الى ذلك ان وقته متأخر عن الذين سبقوه ، فقد توفي الرجل عام ٧٣٩ ، ه ونحن نعرف ان العامل الزمني هوتراكم خبرات لاجيال متعددة ، فكانت ثقافة القزويني ، نظرا لذلك العامل السبب في استيعاب رأي منهجي واضح وقصير للبلاغة.
الكلام البليغ يطابق مقتضى الحال .
لنرجع الى القاعدة المنطقية .

الكلام
فصيح غير فصيح
مطابق للحال
غير مطابق

والاحوال التي نقصدها هي :
التعريف : التنكير ، الابتداء ..الخ (٥٠).

الخاتمة :
كانت تلك اهم النماذج المختارة التي حددت مفهوم البلاغة ، وقد رأينا ان من ادلى بدلوه ، اما ان يكون شخصا بعيدا عن الادب ، فرض عليه ظرفه ، ان يقول كلمته في المصطلح حسب موقعه السياسي او الاجتماعي او الفلسفي الى غير ذلك، وهناك من ابدى رأيه بالرغم من تخصصه في حقل الادب ، ولعل الادب ، كان حرفته ، لكنه لم يوفق ، حتى استقر بين ايدينا تعريف القزويني الذي حدد فيه مفهوم تلك الكلمة ، لكننا نعود ، ونقول ، لنذكر ، ان هذه الكلمة ، امتدت من حيث السعة بحال ، لا يستطيع ان يخصص سماتها الاساسية رأي ثابت متفق عليه .

الهوامش :

١- الرازي ، مختار الصحاح ، مادة "بلغ" كذلك المنجد .
٢ - المصدران السابقان ، مادة "فصح "
٣ - اية ١٤ من سورة ابراهيم .
٤ - اية ٣ سورة الرحمن .
٥ - ابن رشيق ، العمدة ٢٤١/١ ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد .

٦ ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ، شرح نهج البلاغة / ٢٨٥/٨ ، ت محمد ابو الفضل ابراهيم .
٧ ـ المصدر السابق ٢٢٥/١٧
٨ ـ المصدر السابق ٢٦٥/٢٠
٩ ـ ابن عبد البر ، بهجة المجالس ، ١٠٨/١ ط مصر .
١٠ـ ابراهيم بن عبدالمدبر ، الرسالة العذراء ، ص ٤٦ ، ت زكي مبارك ط ١ ١٩٣١
١١ـ ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ٢٤٢/٢ ت محمد ابو الفضل ابراهيم .
١٢ ـ العمدة ٢٤٢/١
١٣ ـ الرسالة العذراء ص ٤٨
١٤ ـ العمدة ٢٤٥/١
١٥ ـ المصدر السابق ٢٤٢/١
١٦ ـ الراغب الاجهاني ، محاضرات الادباء ٥٨/١ ، ط مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١
١٧ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ٨٩/١ ، ت عبد السلام هارون ، ظ لجنة التأليف ١٩٤٨
١٨ـ العمدة ٢٤٥/١
١٩ـ الرسالة العذراء ، ص ٤٦
٢٠ ـ المصدر السابق ، ص ٤٦ .
٢١ـ. العمدة ٢٤٥/١
٢٢ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٣ ـ المصدر السابق ٤٢٦/١
٢٤ ـ المصدر السابق ٢٤٦/١
٢٥ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٦ ـ المصدر السابق ٢٤٧/١
٢٧ ـ المصدر السابق ٢٤٣/١
٢٨ ـ المصدر السابق ٢٤٦/١
٢٩ ـ العقد ٢٢٧/٤ ـ ٢٢٨
٣٠ ـ العمدة ٢٤٢/١
٣١ ـ محاضرات الادباء ٥٨/١
٣٢ ـ المصدر نفسه والصفحة ، البيان والتبيين ٩٧/١
٣٣ ـ العمدة ٢٤٥/١
٣٤ ـ البيان والتبيين ٨٨/١
٣٥ ـ المصدر نفسه ، والصفحة
٣٦ ـ المصدرنفسه ٧٥/١ ـ ٧٦
٣٧ـ الرسالة العذراء ص ٤٤ ، البيان والتبيين ٨٨/١
٣٨ ـ الرسالة العذراء ص ٤٦ ، العمدة ٢٤٥/١
٣٩ ـ الرسالة العذراء ، ص ٤٦
٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ ، البيان والتبيين ، ٨٨/١
٤١ ـ الرسالة العذراء ص ٤٦
٤٢ ـ المصدر نفسه ص ٤٧
٤٣ ـ المصدر نفسه ص ٤٧ ، ونسب هذا التعريف لغير العتابي ، العمدة ٢٤٧/١
٤٤ ـ ابو هلال العسكري ، الصناعتين ص ٦
٤٥ ـ التلخيص ١١٦/١
٧
٤٦ ـ محاضرات الادباء ٥٩/١
٤٧ ـ نقد النثر ص ٦٦
٤٨ ـ الايضاح ، ص ٢٨٠ ، ت محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب ، ط ٤
٤٩ ـ المصدرنفسه ، ص ٧٤ .
٥٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٠

الشعر مدينة الاحلام «٣»

والمسرح.. مرثاة للجنون. وعصفرة للحب

محمد زهير الباشا

عاد الي صديقي (س . ج) وهو — مقطب الجبين — غاضبا متأجج النبرات ، لكنه لم يطل ، وكأنه عثر على ما يفكك الغاز غضبه وفورة ألفاظه :

— إن أضخم ما أعانيه هو سوء التفاهم مع هذا الشعر ...

فأنا لا احاربه ولا أدينه ولا احاول أن أتغلب على فنه غير المدرك ، أنني أعتبره مقطوعة ادبية فلا أرضي أحدا .. أضعه في زمرة النصوص الادبية فيسخط أهل هذا الشعر ودعاته وجزاوه ومريدوه ..

— قيل يا صاحبي : انه على المتأدب أن يحفظ وينسى ما يحفظ من ديوان العرب، صديقي : هل لك ان تسأل واحدا فيم اذا، اطلع على هاشميات الكميت ..؟ او قرأ مستمتعا بخمريات ابي نواس .. اواستسلم لصوفية في فن القول عند ابي العتاهية وزهدياته وبساطته ؟

— دعني أتمم عنك .. فلعل الحديث يطفيء ظمأ — الروح — وأشاركك يا صديقي ، وأراهن ان احدا من هؤلاء لم تسبح أخيلته مع تشبيهات ابن المعتز .. ولم ترتو روحه من ديباجة البحتري ..

صديقي : أنسيت حجازيات الشريف الرضي . . الاربعين ..؟

— اذن .. ما الذي قرئ .. وما الذي لم يقرأ ؟ .. ومن قرأ واستوحى ؟

صديقي : — لا تتعب نفسك .. بعضهم يظن أنه ليس بحاجة الى افكار ولا الى تجارب القدماء ولا الى قصائدهم — القراء .. يريدون اسماءهم على غلاف الديوان .. ثم الديوان .. ولأن الشهرة كالمسمار لا يغرز الا بتوالي الطرقات .. وهذا سوء تفاهم أليم أليم ..

— وما الذي يرضيك .. في هذا اليوم؟ من نظم الشعر أو ارتجاله ؟

صديقي : ان تكون للشعراء مدن زاخرة ممتلئة .. يصرخ في شوارعها واطيافها تلمس في ابياته شلال الابدية .. يخدم ذرات الارض .. يرتفع مع المأساة . .... وبالمأساة ويعقمها .. فتدمع العيون ، وتدمى ويزين لنا التفاؤل فترقى به الاحاسيس ومعه المشاعر كلها كم كان الشريف الرضي رقيقا عفيفا :

— الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك الا مدمعي الباكي

صديقي : ما زلت أعاني من سوء التفاهم اكثر .. كلما اطلعت على امثال هذا الشعر الاكرم والانور في هذا العصر : عصر اليقظة والصحوة ..

— لانك لا تجيد لعبة الاصفار .. كما يجيدها العمالقة الكبار ..

صديقي : مثلا .. مثلا .. مثلا .. لاتخرجني من متاهات الاشعار الى ملاعب الاصفار . . رويدك .. يدغدغون احلامنا بالحلول . . ويرسمون سلة مزخرفة وثانية مزينة وثالثة تجمع ولا تطرح .. ورابعة تحصي الفوائد ولا تربح ..

صديقي : تحدث بصوت اوضح .. وبرموز شفافة ..

— في هذه : المسلة .. يا صديقي .. الاصفار هي الحلول .. تجويع الشعوب الافريقية ، فبعد ان كانت افريقيا مصدر ارزاقهم ، باتت تشكو من الجوع والمرض والتشريد .. انهيار افريقيا معناه الفتك بأرضها وسكانها بأساليب لعبة الاصفار منها : الجوع والمرض والتشريد والا .. أما رأيت مصير بوكاسا بعد ان أمدوه ثم أمدوه

بالذهب .. وأخيرا فضحوه واوصلوه بالحالتين الى درجة الصفر المساوية للحل والهدف .
واعتبر اليوم - هدية مسمومة - ففي ملفه احدى عشرة تهمة - يعني احد عشر صفرا . والاغرب انه متهم بأنه آكل لحوم البشر، وتعذيب الاطفال مما ادى الى وفاة بعضهم، لعبة الاصفار في الانواء العفنة يتقنها الكبار ويتساقط على أقدامهم غريبو الاطوار .. وعاد وهو يظن ان استقبالات حافلة منظره بعد ان عجز عن تسديد فاتورة الهاتف والكهرباء .. فاستسلم للصفر من جديد .
صديقي : مزعجة لعبة الاصفار هذه .. فلنستنجد بقول من حجازيات الشريف فما احلى مواعيده ، واعذب اشواقه ..

وعد لعينيك عندي ما وفيت به
يا قرب ماكذبت عيني عيناك
عندي رسائل شوق لست اذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

- كنت اظن انك تفضل شعر النواسي في تصويره الخمرة ، وهيامه بها هياما لم يسبق احد الي مثل ماصوره .. فالارض - اليوم في عصر الليزر - ليست بحاجة الى طوفان - بل هي بحاجة الى الجرار والخوابي من الخمرة لتنسي الانسان وقد صنع مأساته بارادته وعلمه ووعيه فأبو نواس يقول :

ما زلت استل روح الدن في لطف
واستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسد
والدن منطرح جسما بلا روح

صديقي : اني ازداد ادراكا في حل مسألة - الاصفار - التي تمثل انعدام الوزن . . فهل استوعبنا الهتاف العنصري في مدينة السلام :
(الموت للعرب)
وهل تزداد الكلمات الا بحثا عن كلمات مضادة وشارون يصرح :
" ان قضية بناء هيكل سليمان على انقاض المسجد الاقصى ليست موضع جدل وهي مسألة وقت فقط " .
- انه التساقط المريع للنفس البشرية .. اذا انعدمت الاوزان والقيم ونحن نتسارع ونتزاحم لمعرفة مافي السلة من حلول ولعبة الاصفار ..مجهدة .. مضنية ..تسير في دروب شائكة ..
صديقي : لا يتقنها الا الكبار الكبار .. وها انذا اضع امامي الحل الاسهل ، الا ، وهو الانغماس كليا في شعر ابي نواس ودنانه ، والحل الاقسى . . ان افقد هذا العقل نتيجة - انعدام الوزن ..
= وهل تظن نفسك وحيدا على الارض تعيش ،، لتفقد توازنك ؟ اين قدماك ؟ ابحث عنهما لتعلم اي طريقة تسلك غدا ..
فلست على القمر تسرق حجارته ، ولست موغلا باعماق البحر .. لتنهب خيراته . . البحر يغضب لكنه لا يستسلم .. والقمر يبتسم - كالجوكندا .. لكنه ثابت في فلكه ..
صديقي : فمنذ ان وضعت يدي على نظريات هيغل ازدادت المتاهات في آرائي .. ثم التجأت الى جان جاك روسو .. الذي احالني (وبهدوء نسبي) قائلا : غريب امركم ياعرب .. ليس في فكرنا كله ما يوازي ابن خلدون وابن سينا وابن الهيثم ..
فاستشهدت له بنظريات آدم سميث ، وفرويد ويونغ فاضطربت نظراته .. وقال لي : لا تتردد كما السياسة في البيت الابيض . . ولا تماطل ولا تخجل .. عد الى ارضك وما أنحبت ..
- ليتك سمعت صيحة شرف البنت وقدمثله عود ثقاب يلتهب مرة .. أتدري .. كم أحرق البيت الابيض من عيدان ..
صديقي : لكن الاعجب ما لم تسمعه بعد . كيف تباهي الفرد في الصين بربطة عنقه ، فجعلها تتدلى فوق القميص بارزة بالوانها وحجمها ، وابتسم التجار لهذه - المزحة - الفنية ..
- وما الذي حدث يا ترى بسلة الحلول بعد ان تركناها ومعها كل المتناقضات والمعاكسات في تقاطع الشوارع الكبرى ..
صديقي : علينا ان نتقن الهروب من غمزة صاروخ مدمر ، او مغازلة عابر للقارات ، ولنتوزع في المدن .. مدن الاحلام - مرايا محدبة ومقعرة لترد هجمات اشعة الليزر ، المحرقة ذات الفواجع البركانية ..
- وكيف ضاعت الفاسقة مع مشرف البنت ..
صديقي : لدى انشادها معلقة المصارف الكبرى ..
- انسيت . . انت .. قضية انعدام الوزن، ولعبة الاصفار ..
صديقي : لا انساها الا اذاخيمت في المسرح وارتاحت على مقاعد اهل الفن .. حينئذ لا تفرق بين ايجابيات الفن المركب ولا سلبياته ..
- وشر البلية ما يضحك اذا غابت عنا - التراجيديا التاريخية والكوميديا العالمية والنصوص المحلية ..
صديقي : أنا .. أفضل العودة الى التنقيب في مجالي التراث .. على الرغم مما اراه من ادعاءات تود محو معالمه باسم الحداثة والمعاصرة حتى بات التراث : مستباح الحرمات ..

- لأنهم لا يفرقون بين الغث والسمين..
صديقي : بل ويضيقون عليه ويحشرونه بنظرياتهم وفق عصر الصواريخ لا وفق العصر الذي ظهر وابدع وتكون ..
اذن يجب ان نستلهم ونستوحي ونختار ونشذب ليزداد التصاقنا بالارض التي انجبت ابن رشد والفارابي والمتنبي وسالفهم قحطان وعبد شمس ونزار ومعد ، و مناف ..
صديقي : ولعلك تكلم معي على هذه المناظرة التي رسمها التاريخ العربي بالاندلس حادثة بين طياته لتعرف الى اي مدى كان اليهود يتلاعبون بمقدرات الشعوب وأموالها وحياة أبنائها .. فاقرأ وتوكل ما اورده كتاب (نفح الطيب) ، (الجزء الرابع ،) (ولا تنظر الى الماضي بغضب :

صورة اندلسية - في القرن الخامس الهجري

اليهودي شاليب والمعتمد بنعباد :

شاليب : الجزية - يا مولاي ... الذهب يا امير البلاد .. الذهب اولا .
المعتمد : يا نذير الشوّم .. لم يرسل ملك الجلالقة سواك .. يا لعنة الدهر .. خذ .. خذ هذه الاموال .. انه اتفاق مع الملك وليس جزية يا شاليب .

شاليب : اتفحصها واعدها واطمئن عليها . ما هذه الاموال يا مولاي .. انا .. انا لاآخذها بمثل هذا العيار .. يا مولاي .. انها قطع خليط من نحاس .. فأين الذهب

المعتمد : انت تعدها وتأخذها لتوصلها وملك الجلالقة يقبلها لا عليك يا شاليب ..لا عليك .. هذا ما اتفقنا عليه يا شاليب .

شاليب : مولاي .. يظن ملك الجلالقة اني بدلت بالجزية عيارا من الذهب لا يرضاه

الملك.. وانا رسول صدق ومؤتمن . . وأود ان أذكرك يا مولاي اني اتفقت مع الملك ان تكون القطع الذهبية مشجرة ..

المعتمد : خذ الاموال كما هي والا ..

شاليب : أنا لست في حالة تهديد .. لاعلي ما انا الا رجل موثوق يا مولاي ، ومعي اصحاب الملك شهود على ما اقول .. اني استرد ديوني يا مولاي ..

المعتمد : خذ الاموال .. يا لعنة الدهر والا ..

شاليب : لا تغضب يا مولاي .. في العام القادم يامولاى .. لا ادري ما سأخذه منك ربما .. ربما .. يفضل ملك الجلالقة موارد البلاد كلها ، ربما ، وأنا لا اقبل الاالاموال بدنانير ذهبية مشجرة ..
المعتمد : لسنا ندفع ديونا .. وانما اتفاقا .. يا شاليب.. فهل فهمت .. املا ؟
ايها الجند .. اسجنوا اصدقاء اليهودي .

شاليب : وانا تعطيني القطع المشجرة يا مولاي ..

المعتمد : انت .. ايها الجنود ..اصلبوا اليهودي اللعين ..
اتظن موارد البلاد كلها ستكون لك ولمن أرسلك ..؟

شاليب : لا .. لاتفعل يا مولاي .. دعوني.. فأنا آخذ نصف هذه الاموال .. أفتدي منك بزينتي مالا .. مولاي .. ما أنا الا

المعتمد : انت اللعنة الابدية .. فوالله لو اعطيتني العدوة والاندلس ما قبلتهما منك .. خذوه ..

شاليب : أأصلب .. يا ملك الجلالقة .. ..
فماذا جنيت .. يا امير .. ماذا جنيت ؟

*

أرأيت أيها الصديق .. كيف كان يسعى شاليب الى جمع الذهب في سلته - التاريخية - فيتقن بذلك لعبة الاصفار مع العمالقة الكبار .

محمد زهير الباشا

يا حامل الشوق

شعر: شفيق عبد الخالق

يا حامل الشوق أنساما معطرة ... شملي بكل رطيب الند مؤتلق
يا رائد الادب الراقي ومشبعه ... بالفن ، باللون ، من اسلوبك اللبق
نريد سكناك في دنيا جوارحنا ... فاختر مكانك بين القلب والحدق

*

نعمان هذي مغانينا وعصبتنا ... هذا نتاج دوالي فكرنا الارق
عين على الوطن المجروح ساهرة ... يقظى وعين تعاني لهفة الحرق
مجامر الشوق قدت من مشاعرنا ... شعرا، رقيقا كأنداء الصباح نقي
صفنا ممالك شعر من خواطرنا ... حربا على كل مشبوه ومرتزق
وقد عشقنا الطوى كالطود معتصم ... بالكبرياء ، وطعم الذل لم نذق
وكم صبرنا على ضيم يؤرقنا ... فقد كبرنا ولم نسقط بمنزلق
وقد حفظنا حروف الضاد سالمة ... في عزة النفس لا من عيشنا الغدق
وهل حيينا واشباح الغنى قلل ... الا بفضل جهاد الكد والعرق
أنكتب الغزل الفاني بغربتنا ... وأهل لبنان بين النار والحرق
وتحرق القدس والاوطان سائبة ... وسيف " يهوه "فوق الرأس والعنق
وهل تعود ذرى الجولان سالمة ... ومجدل الشمس بين الشك والقلق
تحدت الموت وامتدت سواعدها ... رغم الصعاب ، وطالت هامة النزق
آمزقت ثورة التحرير واندثرت ... حلماتنا تناثر اشلاء من المزق
وبهجة العلم الخفاق ذابلة ... وما تبقى به بعض من الخرق
وفتية وحدود الثأر تحدجها ... لم يبق في دمها شيء من الرمق
ولا الفيالق سارت من مواضعها ... تقصي شرور العدى بالسيف والدرق

وذا دخيل وللشذاذ آوسمة وذا شريد على وجه الغبراء شقي
والبائعون كرامات الحمى زمر لهم حوانيتهم في كل مفترق
على التحرر لم تزحف فوارسنا وفي الفرار زمام الخيل في السبق
نفرت والامل المجروح يهزأ بي لم يبق في الساح غير الدف والبزق
عذرا فانا غلاة في صراحتنا بغير كوكبة الاحرار لم نثق
والنصر والوحدة الغراء أمنيتي والارض والوطن المعبود معتنقي

* *

يا رائد الحرف كم اوليتنا شرفا مذ صرت للحرف فوق العطر في الحبق
ياحامل الشوق من" عكاش " من بردى ومن " سعيد " كريم الطبع والخلق
ومن "أمين " على الاداب مؤتمن من"مزهر" الروض من طيب الندى العبق
ونخبة الادب الراقي ومعدنه الصافي ومشعاله في كل منطلق
مرحى لكل اديب سيفه قلم أمضى من السيف في دمغ الاذى الحنق
لولا اصالة هذا الحرف في دمنا كدنا نضيع معا في زحمة الطرق
لولا محامد تلك الارض ما طلعت شمس المعالي ولا الاقمار في الافق

شفيق عبد الخالق ـ البرازيل

١ـ اشارة الى الاستاذ مدحة عكاش صاحب الثقافة

٢ ـ اشارة الى الاستاذ سعيد ابو الحسن

٣ ـ اشارة الى الدكتور امين حرب

٤ ـ اشارة الى الاستاذ صلاح مزهر

مقدمات النهج الواقعي في الحركة الأدبية العربية في الثلث الأول من القرن العشرين

الهام طه النجار

تمدنا القراءة التاريخية لمجريات الحركة الفكرية والاجتماعية في البلاد العربية ، خلال الثلاثين سنة الاولى من هذا القرن ، بماهدات ثلاثة للمنهج الواقعي في الادب والنقد العربيين ، هي :

١ - النظرة الادبية والنقدية للمنورين العرب ، وفكرهم الاجتماعي.

٢ - مقولة الحركة الادبية في مصر خلال السنوات التي نؤرخ لها هنا.

٣ - دور الاحزاب السياسية الاشتراكية في البلاد العربية.

١ - أ - أثرة النظرة الادبية والنقدية للمنورين العرب :

نبه استبداد الحكم العثماني وتخلف الشرق الاقطاعي ، في القرن التاسع عشر ، المثقفين من البرجوازية المسيحية في سورية ، والمنورين الاسلاميين في مصر الى ضرورة الاصلاح الاجتماعي والسياسي .

وكان طبيعيا ان تنشأ لديهم نظرة جديدة الى الادب والنقد في اطار دعوتهم الى التحرر والعدالة .

لقد رأى هؤلاء في الادب ظاهرة اجتماعية ، تعبر عن حالة المجتمع ، وأدركوا دوره الشديد التأثير في الوعي الاجتماعي ، فحفزهم ذلك على انشاء ادب يؤدي وظيفة معرفية الى جانب وظيفته التربوية ، وقد جسدت نظراتهم النقدية وعيهم هذا ، اذ كانوا يقومون العمل الادبي بمحتواه الفكري ويقدرون أهمية الوسائل اللغوية والاسلوبية بمدى قدرتها على نقل فكرة الكاتب الى القارىء واقناعه بها ، وقد حملهم هذا الوعي على استقدام أشكال فنية جديدة ، كالادب المسرحي والقصة والاقصوصة

والرواية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية لصياغة قيم عصرهم المتطورة مع استمرار استخدامهم للاشكال الشعرية القديمة .

ب - ارهاصات الفكر الاجتماعي التنويري بالنزعة اليسارية :

أرهص الفكر الاجتماعي التنويري بالنزوع اليساري ، اذ شغلت العدالة الاجتماعية ، هؤلاء المنورين ،فتناولوها بالعرض والتحليل ، فحولها كتب فرنسيس مراش (غابة الحق) ، وفي اطارها قامت دعوة المصلحين الاسلاميين جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) ،ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وكانواضحا تأثر هؤلاء جميعابالفكر الاجتماعي الغربي، لا سيما بالتصورات الانسانية حول الانسان الطبيعي ، وحقوقه الاساسية في الحرية والمساواة ، والكسب المشروع ،وبمبادئ التضامن الاجتماعي ، فمهدت كتاباتهم لفكرة الاشتراكية ، التي سيحمل لواءها في المرحلة التالية الديمقراطي الثوري السوري المتمصر فرح انطون ، فتتعمق في مقالاته ، وقصصه لا سيما مؤلفه (الدينوالعلم والمال) ممهدا بذلك لظهور دراسة سلامة موسى الاشتراكية سنة ١٩١٢ ،وكتاب نقولا حداد "الاشتراكية" سنة ١٩٢٠ .

ان القيمة الحقيقية لما جاء به هؤلاء المنورون والديمقراطيون الثوريون تتلخص في امرين تضمنهما بحثهم في مسألة العدالة الاجتماعية وحقوق الانسان

الحر ، والمسألة الاشتراكية :
أولهما : الاهتمام المتزايد بالقوة الشعبية .
وثانيهما : أنهم كانوا الماهدين الحقيقيين لنزوع الفكر الاشتراكي العلمي ، الذي سيظهر في البلاد العربية خارجا من بين عطفي التيار الديمقراطي الثوري ، على الرغم من ان هذا الفكر الاشتراكي العلمي ، لم يكن واضحا لديهم ، ولم يبدوا ميلا او عناية خاصة به ، اذ كانوا يأتون على ذكره خلال حديثهم عن الاشتراكية ، فآراء فرح انطون عن الاشتراكية ، لم تكن تخلو من الفوضى والاضطراب ، كذلك فقد كان واضحا تأثر سلامة موسى بالاشتراكية الفابية ، لذلك فان ما عناه حين تحدث عنها في تلك الاونة لم يكن غير نظام اشتراكي ديمقراطي (برلماني) غربي .
ان ذلك اذ كان يشير الى تطورهام في الفكر الاجتماعي الغربي ، لدى هؤلاء المنورين العرب ، فان هذا الفكر ظل موسوما بالبعد عن الشعب في الواقع الفعلي ، بفعل عوامل اجتماعية وتاريخية لم يستطع المنورون ، العرب ان يتجاوزوها .

٢ - النظرة الواقعية في الحركة الادبية في مصر بين اعوام ١٩١٩ - ١٩٣٥ :

ومع تصاعد النهوض القومي العربي في نهاية القرن التاسع عشر ، توالت الاحداث السياسية ، وكان ابرزها الصعود الاجتماعي للطبقة البرجوازية وتصديها المباشر للاقطاع المحلي والاحتلال الاجنبي ، وتطلعها الى السيادة الاجتماعية والسياسية ، ففي مصر قامت الفئات المتوسطة والشعبية بثورة عام ١٩١٩ ،ولم يكن الاحباط الذي منيت فيه بنتيجتها ، مانعا لها من تحقيق بعض حقوقها ، وفرض بعض قيمها على الصعيدين الاجتماعي والفكري ، وبفضل هذا التطور منذ سنة ١٩١٩ ،وحتى منتصف الثلاثينات برفد سيرورة النظرة الواقعية في الادب والنقد العربيين الحديثين ، مواصلة ما بدأه الادب في المرحلة التنويرية ، لقد جعلت ثورة عام ١٩١٩ المواطن المصري واقعيا ، يواجه الواقع بايجابية وفاعلية ، فكان لذلك دورا في تعميق دعوة بدأت تركو في المجتمع ، والادب، للصدور عن الواقع وابراز الطابع المحلي ، والتعبير عن العصر ، والصدق في تصوير الناس بمختلف فئاتهم واحوالهم نقرأ لاحمد ضيف في " مقدمة لدراسة بلاغة العرب في عام ١٩٢١: " نريد ان تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية ، والعصر الذي نعيش فيه ، تمثل الزراع في حقله ، والتاجر في حانوته ، والامير في قصره ، والعالم بين تلاميذه وكتبه ، والشيخ في اهله ، والعابد في مسجده وصومعته ، والشاب في مجونه وغرامه ، اي نريد ان تكون لنا شخصيه في آدابنا "
وكانت المدرسة التأثرية الذاتية في مصر الثمرة الاولى لثورة ١٩١٩ ، اي تعبيرا عن الاخفاق المؤقت الذي منيت به الفئات المتوسطة والشعبية في الثورة ، ولذلك فقد كان هجوم اصحابها ممثلي التيار الجديد عنيفا على أنصار التيار القديم المتحالفين مع الطبقة الثرية ، التي تقاسمت السلطة مع قوى الاحتلال .
ان الامر المهم هنا ، هو دعوة نقاد هذه المدرسة في الديوان ١٩٢١ ، وفي الغربال (١٩٢٣) الى ربط الادب بالحياة ، وجعلهم هذا الرباط شرطا اساسيا في الابداع الفني ، وافرادهم مكانة هامة للادب في حياة الامم ، وغير ذلك ، مما يعد مواصلة او تعميقا للنظرة الواقعية التنويرية ، اتخذ صفة التوجيه للحركة الادبية والنقدية في البلاد العربية ، حلل ثلاثة عقود من السنين ، الى جانب ما مثله ظهور هذه المدرسة من دلالة اجتماعية كبيرة .
وتجدر الاشارة هنا الى ان ازدياد قوة البرجوازية الصاعدة ، سياسيا واجتماعيا ، وانتشار ا يديولوجيتها في المجتمع العربي لم يكن يعني انتصارها الكامل في هذه المرحلة ، فما زال الصراع دائرا في انحاء الحياة في المجتمع ، بين القوى التي تمثل الجديد ، والقوى التي تمثل القديم مما نجد تجسيده المعبرفي النقد اذ تصارع فيه مذهبان رئيسيان تتداخل الحدود بينهما هما :
١ - المذهب السلفي الذي يعني بالنقد اللغوي مترسما طريقة القدماء التي تقوم على العناية بالالفاظ والتراكيب والبلاغة .
٢ - المذهب الحديث الذي يهتم بالتجربة الادبية والصياغة الفنية .. وغير ذلك،
أما المدرسة " السورية " في الادب ، فقد تخلفت عن مواكبة "المدرسة المصرية " بعد الحرب العالمية الاولى اذ آتت الحرب والاحتلال الفرنسي على ما تبقى من نشاطها الذي ارهقه الاضطهاد التركي في أواخر القرن الماضي .
وساعدت العزلة التي فرضها الاحتلال الفرنسي على سورية في انماء جو ثقافي

في سوريا خاص عملت فيه ثقافتان عربية تقليدية وفرنسية ، لم يلبث ان انبت جيلا جديدا من الادباء ولونا جديدا من الادب ، سيتأخر ظهور تأثيرهما ، الى ما بعد سنة ١٩٣٠ بسبب ضعف قوة ممثليهما ذلك ان البرجوازية المحلية الصاعدة كانت تفتقر الى قاعدة جماهيرية ذات نفوذ ، مما أفردها امام هجوم المحتلين الفرنسيين والاقطاعيين المحليين ، فاضطرها تقوم في (شباط - اذار) من هذا العام الحركة الشعبية الجماهيرية المعادية للاستعمار بالضراب الستيني " ، فتحقق انتصار الحركة الوطنية ٠

٣ - النزوع الاشتراكي العلمي اودور الاحزاب السياسية في نشوء الواقعية :

نشأت الاحزاب الاشتراكية في البلاد العربية في العشرينات من هذا القرن ، في اوج الصراع والكفاح العربي للتحرر الاجتماعي والسياسي ، فوجهت ما وجد من نظرات واقعية في الادب والنقد العربيين وعمقتها فكريا " ايديولوجيا "

قام سلامة موسى في مصر بتأسيس اول حزب اشتراكي في الوطن العربي، ثم تبع ذلك تأسيس الحزب الاشتراكي السوري، اللبناني سنة ١٩٢٢ ، على يد يوسف ابراهيم يزبك ، وفؤاد الشمالي ، وكان التيار الاشتراكي كسلفه ورديفه التيار الوطني الديمقراطي الثوري ، ثمرة البرجوازية المحلية ، اذ لم يكن التيارين ، وأوجد التداخل بينهما في أول نشوء هذا الاخير ، ففي مكونات التيار الديمقراطي الثوري نفسه ، ما يجمعه مع التيار الاشتراكي العلمي ، اذ يضم الاول أمشاجا من الفكر القومي الليبرالي الانساني المتأثر بالصراع الاجتماعي ، وبالفكر الاشتراكي للثورة البرجوازية الفرنسية ، بالاضافة الى مبادئ ثورة أكتوبر الاشتراكية سنة ١٩١٧

لقد نشط عناصر النزوع الاشتراكي العلمي في اول عهده بترجمة المؤلفات التي تفسر الفكر الاشتراكي عن اللغة الفرنسية ٠

وفي هذه المرحلة ، تبدو الجهود الحثيثة ليوسف ابراهيم يزبك مؤسس الحزب الاشتراكي في لبنان، في نشر الفكر الاشتراكي ، وفي تثقيف العمال بمبادئ الثورة الاشتراكية ، اذ كان هدفه كما حدده هو ان يهيئ ظروف بلاده لاقامة النموذج الاشتراكي الملائم لها مستقبلا ، وكان ينشر مقالاته التبشيرية في جريدة " الصحافي التائه ١٩٢٢ - ١٩٣٠) والمجلة الحزبية " الانسانية ١٩٢٥" ٠

ولعل البيان الشيوعي الذي كتبه ماركس وانجلز هو العمل الماركسي الاول الذي تم نقله الى اللغة العربية في هذه المرحلة ، اذ قام خالد بكداش بتعريبه ونشره في دمشق سنة ١٩٣٣٠

ولا يعثر في العشرينات من هذا القرن على اية اشارة او اهتمام لهذه الاحزاب التي ما لبثت أن انتشرت في مصر وسورية ولبنان والعراق ، بالادب والنقد ولعل كتاب موسى سلامة " في الحياة والادب " ، الذي نشر سنة ١٩٣٠ هو اول مؤلف بحث صلة الادب بالحياة والشعب ٠

وهكذا فاننا نزعم ان النزعة الواقعية بدأت في العصر التنويري العربي ، وأنها مثلت منذ ذلك الحين نظرة مغايرة ، جديدة وواضحة ، ومطردة في مقابل المذهب السلفي السائد (اللغوي والبلاغي) ، وما نقصده بالنزعة الواقعية هنا ، هو نظرة المنورين العرب الى الادب بوصفه ظاهرة اجتماعية تعبر عن حالة المجتمع ، وتقوم بدور معرفي وتربوي ، وقد كان من الممكن لهذه النزعة الواقعية ان تتطور فتتعمق صلتها بالشعب ، بظهور الفكرة الاشتراكية لدى هؤلاء ، ولولا وجود عاملين: الانتماء البرجوازي للمنورين ، والتخلف والجهل اللذان كانت ترزح تحتهما الطبقات الشعبية العربية في ذلك الحين ، ولايمكن القول ان المرحلة التالية قد حققت ما عجز المنورون عن تحقيقه ، بشكل كامل وصحيح ، على الرغم مما احدثه الصعود الاجتماعي للطبقة المتوسطة العربية في مطلع القرن الشعرين، من تطوير نسبي في تحقيق اجتماعية الادب وشعبيته ٠

لقد كان ظهور النزعة الاشتراكية العلمية والاحزاب الماركسية ، مواكبا لاشتداد النضال العربي على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، ولذلك فقد جرت محاولات هذه الاحزاب لاحتواء القوى التحررية ، وامتلاك زمامها من خلال طرح الايديولوجية الماركسية ، وكانت الحركة الادبية والفكرية في هذه البلاد لعربية للعوامل التي شرحناها مجالا اكثر تقبلا وملاءمة لهذه الايديولوجية الثورية ، لذلك أمكن احتواء النزوع الواقعي الذي انطوت عليه الحركة الادبية - الفكرية ، في المذهب الواقعي الاشتراكي الجديد ، ولعل ذلك يفسر انتشار هذا المذهب وسيادته في الحركة

الادبية - الفكرية العربية خلال فترة وجيزة نسبيا ، ويفسر طابعه المنفصل وغير الفاعلي في الواقع الشعبي ، ويؤكدهما .

ولقد كان للمجلات العربية ذات الاتجاه التحرري ، اثر كبير في دخول هذا المذهب الجديد وانتشاره ، ففي مجلة " الطليعة " ١٩٣٥ - ١٩٣٩ ، ثم في مجلة الطريق ١٩٤١ - ٠٠٠٠) ظهرت الواقعية الاشتراكية وبدت تتضح معالمها الرئيسية .

المعيدة : الهام طه نحار
جامعة حلب - كلية الاداب

الأنخاب

يسيرُ لا يعبأ ولا يكترثْ
خطواته طريقٌ وفي رأسه شَغَفُ النار
يرى الحسن بن الهيثم هنا
يراه ساحرَ المرايا
يهب الضوء والماء مملكة ويراهُ
مدججاً بالبريق زجاجةً في يديه لا يعبأ ولا يكترثْ
وريث الطبيعة يشفّ يخدع الافق بالمرايا
ويرسم الماء في الكأس للرأس أن تسكر
أن تكسر الكتابة
والمرايا في دورةٍ في دوار
له الطريق خطيئة الأرض نهرا يراه
يفضّض الجثة كي تُحسن الحلم والماءُ زينة المرايا
يغادر النهر يلجأ في خندق الظلالة والضوء
هو الحسن ابن الهيثم يحرر بالعين كي لا ترى ما يراه
طريقٌ مكنوزة مثل طيرٍ لا يعبأ ولا يكترث
يرفع الكأس للشمس :
هذه نخبك أيتها الملكة

شعر : قاسم حداد
البحرين

إلى عابثة

حامد حسن



أو تجرأين - وأنت ماردة - على
أن تغمزي من كبرياء المارد ؟

لم يبق من أمس الهوى عندي سوى
قارورتي عطر ، وبضع قصائد

هذي على كبدي تنام ، وهذه
تندسّ كالأحلام بين وسائدي

كلماتها وهج ، فلو علقت بها
يد ناقد لحرقن كف الناقد

* * *

لاتُسكتي اللهف المعربد في دمي
ونعيم نار فمي ، وشهقة ساعدي

ماغادر الشّفة العميسة باللظى
إلا ليزرع نهدة في الناهد

ولرب سنبلة هنالك أدركت
سر الحياة على ذراع الحاصد

وعبرتِ في جفنيّ عاجلة كما
عبر اليقين على ضمير الجاحد

كالنجم ماعلقته مقلة راصد
حتى تفّلت من جفون الراصد

*   *   *

كرمي ـ وللعَطِرات يوم قطافه ـ
فرح ، وتشهق بالشهيّ موائدي

لاتنكري ! ! لم تنطفىء شُعَل على
غمازتَيْك ، ولاتعذّر شاهدي

الفكاهة.. فن ومذاهب

محمد غازي التدمري

— ١ —

مهما تكن طبيعة الفن ، فانه ليس من المعقول ، أن تنحصر مهامه في دائرة ضيقة ، لا تتعدى هموم وأشجان صاحبها ، ولا تتخطى اسار النفس المتكورة في محيط الأنا .

والفنان بطبيعة ميوله ، ينزع دائما الى الخير والحب والجمال ، ولا يستطيع أن يعيش في معزل عن الآخرين ، او يقف بعيدا عنهم ، لأن كل نتاج فكري خاص ، انما هو في حقيقته جزء من نتاج عام ، وصورة متلاحقة لتجربة عامة يستلهم الفنان موادها من الواقع ، ابتغاء رسم مسار الفكر العام المعبر عن مختلف جوانب الحياة المعاشة .

فالتجربة الذاتية ضمن هذا الاطار ، وان صدرت عن وجدان خاص ، فانها تحمل في الوقت ذاته ، مقومات الموضوعية ، حين يعمل الفنان ذاته أمام فكره ، ليصل الى المفهوم العام ، الذي ترتكز عليه بنية الاحداث ، فتأتي آثاره صورة واضحة المعالم ضمن الاطار الجماعي ، وتعبيره في مثل هذه الحالة الشعورية ذاتي في نشأته ، موضوعي في نهاية أمره ومن هنا ، فانني لا أعتقد أن هناك فنانا يملك رهافة الحس ، ورقة الشعور ، ودقة الملاحظة ، من الممكن ان يعيش بشكل ما على هامش الاحداث ، أو خارج اطار الجماعة .

وفي انطلاقة الفكر المبدع المعبر عن الجزء من خلال الكل يتحمل الفنان الصادق وهج الاحتراق من أجل أن يمتد بعطائه جسرا تعبر الاجيال عليه .

ولذلك تأتي الواقعية الشخصية تعبيرا عن حدث شخصي بصفته ، ولكنه عام بدلالته فتكون متممة لمسار الادب العام ، ورفدا له ، ولونا من ألوانه التي لا يمكن بترها او تجاهل قيمتها ، لأنها جزء تعبيري خاص من كل فني عام .

وعلى دروب المرحلة الصعبة ، تستوقفك محطات متناثرة هنا وهناك ، يتوقف على أرصفتها المدنفون ، يسترجعون ذكريات أيامهم ، وطيوف أحلامهم ، من خلال الطرفة التي تدفع الى الابتسامة أكثر مما تبعث على الضحك والسخرية ، فيأتي الاثر موقفا لنفس تفاعلت مع الحدث وامتزجت به ، من خلال اللحظات المعاشة خارج حدود الكلفة ، فتتشكل دوحة ظليلة في أرض مجدبة ، يتفيؤها المسافر في هجيرة الظهيرة ، فينخلع رداء الرسميات وتختفي المكاتب الانيقة ، وتنزع ربطات العنق الحريرية ، فيتمددوا متساوين فوق بساط الكلمة المدنفة . والطرفة المترفة ، يطلون من خلالها على الحياة المرهقة ، قناديل ضوء تسطع كلمات خفيفة الروح والظل ، هي وان كانت ضيقة الفسحات فانها تصور جانبا هاما من جوانب حياتهم ، التي لم نقرؤها في دواوينهم الرسمية ، أو نسمعها في أمسياتهم الشعرية .

— ٢ —

هذا الجنس من الفن ، عالم واسع لم تجل منه حتى الآن الا ملامح عامة ، يمتد في جانب آخر حتى يتصل بالهجر والسخرية ، الى عالم المأساة والملهاة ويشتمل فيما بين ذلك على ألوان من الابتسامات ، وضروب من الضحك متفاوتة في درجات الخفة والثقل ، ومقدار الحلاوة والمرارة ، ومراتب الرفق والعنف ، وعناصر الفكر والعاطفة والنشاط واساليب التلميح والتصريح ، ومقولات القريظ والتقريع ، وما الى ذلك من طيوف وأجواء وأفانين وطيوب ، مما جعله نوعا من الفن غير العادي ، يمثل طائفة ، ويوائم أذواق طائفة أخرى ، ، بينما تنفر منه أذواق أخرى ، ولذلك كان لكل شعب نصيب من هذا النوع من الفن ، وحظ من الاستمتاع بما تلذ له القلوب ، وتطرب له الاسماع .

وان كان الفن وليد مزاج الفنان ، ونتيجة هواه ، وصنيع شعوره ، فان هذا الضرب من الفن ظل مقتصرا على أربابه الذين تسمح لهم نفوسهم بتناوله .

ولذلك نستطيع أن نحصي مئات الادباء ،

الجادين المجدين ، بينما نعجز عن حصر شعراء وأدباء فن الفكاهة البارعين وما ذلك الا لأن هذا الفن بالذات يحتاج الى خفة ظل وبدهية سريعة ، وقدرة نافذة قادرة على التقاط الصور وبلورتها وصياغتها بالشكل المطلوب ، وتحويلها الى مجموعة صور متزامنة متلاحقة ، تختلف كل صورة عما سبقها وعما يليها ، بطبيعة تشكيلها ،واختلاف ألوانها ، وتباين خطوطها ، حتى تتمكن من استقطاب العامة والخاصة ، فتحرك مشاعرهم ، فلا يكون هدفها الضحك لمجرد الاضحاك وانما الضحك للترويح عن النفس المتعبة ، من خلال تصوير لقطة صغيرة ، في كومة كبيرة تحمل البعد والتصوير والنقد والمحاكمة بأسلوب ضاحك ممتع .

والفكاهة كما يقول (ابن عبد ربه): " نزهة النفس وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور، كما يرى (فرويد) " أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي ، يلجأ الانسان اليه ، ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه ، وهي التورية والتأويل والاختزال والتلفيق ، أي :جمع الصورة الواحدة في صور متجزئة متفرقة لا تجتمع في الواقع " .

وأيا كان الدافع الى الفكاهة ، فان الناس يضحكون لسماعهم ما يحرك شعورهم ، وينتقل من الاعصاب الى العضلات فيخرج من اسار الحياة الجادة المجهدة الى متاع الراحة والهدوء ، فهو انفجار يحدث في انتظار أو من جهد يتحول فجاءة الى لا شيء ، الى فراغ مطلق ، وكأن النتيجة هي التي تدفعنا الى أن نضحك ، ونغرق في الضحك ، بمقدار بعدها عنا ، ومفارقتها للمقدمات التي تسبقها وهذا ما يجعل الفكاهة غذاء روحيا لا تقل ضرورته عن القوت اليومي في الحياة المادية المرهقة بمنغصاتها واحياطاتها واظرافاتها المختلفة .

– ٣ –

ولقد كان العرب يحبون الضحك الضحاكين ، وسموا أولادهم : الضحاك وبسام ، وطلق وطليق ، واذا مدحوا الرجل قالوا : " هو ضحوك السن وبسام الثغر وهش الى الضيف ، قال شاعرهم :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة
قليلا وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن
بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

كان النبي (ص) يضحك حتى تبدو نواجذه ، وروي عنه قوله : " روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت ."

وبالمقابل نقرأ في أخبر العرب أن منهم من كان يكره المزاح ، حيث قال أحدهم : "لا تمازح صغيرا فيجترئ عليك، ولاكبيرا فيحقد عليك " وقال (عمر بن عبد العزيز " لايكون المزاح الا من سخف او بطر " وبدهي أنهم يقصدون في هذا عدم الافراط في المزاح ، وخلط الهزل بالجد ، وكان النهج السليم في الفكاهة والمزاح ما اورده (سعيد بن العاص) في قوله لابنه : " اقتصد في مزاحك ، فان الافراط فيه يذهب البهاء ، ويجري عليك السفهاء ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين " .

– ٤ –

وقد قسم العرب الفكاهة الى أقسام ومذاهب أوردوها في مؤلفاتهم موزعة شتى، يدخل بعهضا في باب الغباوة والبلادة ، أو في مجال التكسب أو في مجال التناقض ، والتناظر ، أو اللعب في الالفاظ ، كما يدخل بعضها الاخر في باب التهكم بالعيوب الجدية ، أو التهكم بالنفس أوالمداعبة البريئة .

وفيما يلي بعض هذه الانواع التي أذكرها على سبيل الذكر لا الاستقصاء .

١ – النكتة :

تدور بين اثنين على الاقل ، يستمد صاحب النكتة مواقفه من سرعة البدهية ، وخفة الروح ، فيعمد الى مغالطة صاحبه في ألفاظه ومعانيه .

٢ – السخرية :

أرقى أنواع الفكاهة ، لماتحتاج اليه من ذكاء ، ومكر ، تستخدم بخشونة ، فتكون لدغا خالصا ، كماتستخدم في رقة فتكون تهكما يمس صاحبه مسا رقيقا .

٣ – الدعابة :

وهي فكاهة الوقورين الذين يقولون ما يدعو الى الابتسام الخفيف وليس الى الضحك العالي .

٤ – الغفلة والغباوة والبلادة :

معتمدة على التظاهر بالغفلة ، والبلادة ، أوالغباء ، ومن أجل تحقيق غاية ما ، ويعتبر (جحا) امام هذا النوع من الفكاهة .

٥ - التناقض :

ومن ذلك أن جارية أتت الى (أبي ضمضم) فقالت : " ان هذا الفتى قبلني" فقال لها : " قبليه فان الله تعالى، يقول : والجروح قصاص " .

٦ - اللعب بالالفاظ :

ومن ذلك أنه اختصم الى (زياد) (بنوراسب) و (بنو الطفاوة) في غلام ادعوه ، وأقاموا جميعا البينة عند (زياد) فأشكل عليه الامر فقال (سعد الرابية) : (أصلح الله الامير ، فقد تبين لي في هذا الغلام القضاء ، ولقد شهدت البينة لبني راسب ولبني الطفاوة ، فولني الحكم بينهما ، فقال زياد : وما عندك في ذلك ؟ فقال : (أن يلقى الغلام في النهر ، فان رسب فهو لبني راسب ، وان طفا فهو لبني الطفاوة ، فأخذ زياد نعليه وقد غلبه الضحك " .

٧ - التحكم بالعيوب :

ومن ذلك ماقاله (ابن الرومي) في صلعة (أبي حفص) العراقي :

" ياصلعة " لأبي حفص ممردة
كأن ساحاتها مرآة فولاذ
ترنتحت الاكف الواقعات بها
حتى ترن بها أكناف بغداذ

٨ - التهكم بالبخل والجبن والشره :

ومن ذلك قول (أبي نواس) ، في بخل (الفضل) :

رأيت الفضل مكتئبا يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعة لما رآني قادما وبكى
فلما حلفت له بأني صائم ضحك

٩ - الدعابة :

ومن ذلك ما قاله البهاء زهير، في بغلة صديق له :

" لك يا صديقي بغلة ليست تساوي خردلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنملة
أشبهتها أو أشبهتك كأن بينكما صلة
تحكي صفاتك في الثقافة والمهانة والبله

١٠ - الفكاهة للتحبب والاستجمام :

وهي لا ترمي الى اختلاق أو افتراء وانما ترمي الى الاستجمام والارتياح ، ولو للحظة ، من أجل استئناف العمل والقيام بأعبائه أكثر نشاطا وارتياحا،

١١- الفكاهة للفكاهة :

ظهر هذا النوع من الفكاهة في العصر الاموي ، بعد أن ارتاح الناس واتجهت أنظارهم الى اللهو والسماع والاستمتاع ، ومن أهم الشخصيات المحببة في ذلك الزمن (أشعب) .

١٢ - الفكاهة للتكسب والتعيش :

شاع هذا الجنس من الفكاهة في العصر العباسي ، حيث كثر الترف والغنى وأصبح يعيش في كنف الملوك مغنون ومهرجون ، لا وظيفة لهم غير ادخال السرور والبهجة الى قلوب الخلفاء ، ومن أشهرهم (أبو دلامة) الذي كان شاعرا حاضر النادرة ، كثير الجبن ، وله في ذلك أخبار كثيرة مضحكة .

١٣ - التهريج وترف الفكاهة :

كان للعوامل الاقتصادية حوافز قوية فيتوجيه أغراض الفكاهة ، حتى أضحت تهريجا تفتح عن مواهب الشعراء ، ومريدي الخلفاء ، ويروي مؤلف الاغاني ، أن (أبا العبر) كسب بالحمق ، أضعاف ما كسبه شعراء عصره بالجد .

١٤ - الفكاهة لدعم الآراء والمذاهب :

غدت الفكاهة والنادرة سلاحا يستعمل في تأييد فكرة ما ودعم مذهب من المذاهب ، ولقد وجدنا في (رسالة الغفران للمعري) سخرية لاذعة بكثير من الاراء والنحل وغمز في طائفة من المفكرين واذا ذكر (المعري) التناسخ روى البيتين التاليين :

" أعجبي أمنا لعرف الليالي
جعلت أختنا سكينة فاره
فازجري هذه السنانير عنها
واتركيها وما تضم الفراره

كما يروي لآخر :

"تبارك الله كاشف المحن
فقد أرانا عجائب الزمن

حمار شيبان شيخ بلدتنا
ضير جارنا أبو السكن
بدل من مشيته بحلته
مشيته في الحزام والرسن

على أنه لا بد لنا حين نصل الى هذه المرحلة من البحث في أفانين الضحك ، أن نشيد بمدينة الضحك المستقلة التي شيدها (ابو عثمان بن بحر الجاحظ) وتمكنه من أنواع المعارف المختلفة في عصره ، وقد مزج الفكاهة في كلما كتب ، وحرص على النادرة في جميع مؤلفاته ، ولا يزال جرس ابتسامته العريضة الذكية ، وقهقهة ضحكه يهزجان عبر حقب العصور المتطاولة ، وهو يبرز أهمية الفكاهة واتصال الهزل بالجد في كتبه ، ويكون كتابه (البخلاء) قمة هذا الفن الضاحك ، والجدير في الذكر أن آراء (الجاحظ) في الضحك لا تزال صائبة من الوجهة العلمية ، حتى يومنا هذا .
فالجاحظ يرى ان الاضحاك يتطلب جوا جماعيا فقال : (ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الاصحاب " ثم جاء (بركسون) فوافق الجاحظ في رأيه وقال : " اننا لا نتذوق المضحك حال شعورنا بالعزلة ، والضحك بحاجة الى صدى " كما اتفقت آراء الجاحظ ، مع آراء العلامة (مكدوجل) من حيث أن الضحك غريزة والى أنه ذو أثر في الجسم والنفس .

١٥ ـ فن الكاريكاتير المضحك :

هو ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ، وانما يعتمد الخطوط والالوان والظلال والضوء ، والتصوير الساخط الى جانب من جوانب الضعف في الانسان فيعمد الى تكبير هذا الجانب وتفخيمه ، فتمسي الصورة مضحكة لما يظهره الفنان من تنام غير موضوعي أو طبيعي في أوضاع الجسد .

١٦ ـ المساجلة والمناظرة :

من أبواب الفكاهة والتندر ، باب المساجلات والمناظرات الشعرية وهو فن قائم على علاقة الفرد بالفرد ، حيث تدور المساجلة ـ في العادة ـ حول حادثة تقع لشاعر ما ، فتنتقل من شاعر الى آخر ، وخلال هذا الانتقال تتطور الحادثة ، وتنتقل من الحيز الجاد الى مساحات دائرية فكهة ، من خلال المداعبة واقامة علاقات جديدة بين اللغة والصور المتحركة ، القادرة على اصطياد الكلمة الساحرة ، ذات الأبعاد العميقة والمنسجمة مع وقائع الحدث وتناميه التراجيدية ، أو الكوميدية ، ولهذه المجالس نكهة خاصة ، حيث يلتقي المدنفون في رحابها والنفوس هائمة برقاب الابداع ، والروح آمنة مستقرة ، والخيال مجنح محمول على أفياء الكلمة الساحرة المنداة بالعطر، على بساط العبقرية المسافر في رحلة الحرف المترف ، فلا شيء يستحوذ على البابهم ويشدهم من مناهج دراستهم ومداركهم ، لذلك الكائن الجميل ، الذي أطلق عليه اسم (الفن) ، ليحوي النفس المتعبة ، ويحلق بها في ملكوت الشعر ، تضجع الساعات فيها على كف الزمن متجمدة أمام بسمة شاعر مرهف ،أومداعبة أديب ذواقة ، فالجمال واللطف والمداعبة المؤدبة ، رائد أخلاقي لكل ما يدور بينهم في مجالسهم الخاصة ، خارج عياداتهم أو مكاتبهم ، وبعيدا عن الامسيات الرسمية ، والمنابر الخطابية .
وتنقسم هذه المجالس الى نوعين متضاربين نوع يتسم بالجد والوقار : هو من صنف الاخوانيات المتبادلة بين الاصدقاء ونوع آخر يتسم بالفكاهة والمداعبة والنكتة السريعة ، يدور معظمها حول حادثة ما ، قد تكون صغيرة ، أو قليلة الشأن ، وبتداولها تتسع دوائرها ، لتصبح قضية عامة ، معتمدة على الطرفة المستندة على لغة سهلة ، مطعمة ، بالعامية أحيانا ، وكل بمنأى عن الهموم والمتاعب اليومية يحدها طابع أخلاقي عام ، ويسيجها الذوق والاحترام المتبادل بين الشعراء أنفسهم

ـ ٥ ـ

هذا النوع من الفن الفكه ، يرى فيه بعضهم مضيعة للوقت ، وملهاة تبعدهم عن المعاناة الجماعية ، وتحصرهم على موائد الترف المتخمة بالموضوعات الصغيرة ، وقد فاتهم أنها جزء لا يتجزأ من الفن ، كما لا يمكن اسقاطها من وحدة الاساليب التعبيرية ، فهي تشكل لونا فنيا متميزا ، له جذوره العريقة الممتدة في عروق التراث العربي الاصيل، كما أننا في أمس الحاجة اليه خلال متاعب الحياة اليومية ، باحباطاتها المتكررة ، فهي محطات استراحة تقدم فاكهة نادرة ذات نهكة خاصة ، تميل نفوسنا اليها ، وتستطيب أذواقنا مذاقها يقدمها ادباء وشعراء وفنانون على طبق الطرفة الممتعة القادرة على أن تنسينا همومنا اليومية ، وتبعد جفاف الفن الجاد المترمت والمنحرف

تجاه السريالية والرمزية والابهام ٠ ومن هنا فاننا لا نجد في هذا النوع من الفن على ما يحمله من خصوصيات غضاضة في قبوله و الاعتراف به ، كنوع من الواقعية الشخصية التي ترفد الادب والفن الجاد بنسغ الحركة والمرونة ٠

(فابن الرومي) مثلا استطاع ان يتفوق بشعره الساخر ويحقق لنفسه مدرسة أولى في فن الهجاء ، ومعظم النقاد قديما وحديثا ، لم يطردوا الشعر الساخر من رحمتهم ، بل وجدوا فيه ثورة على العيوب والتخلف وتصويرا صادقا لمختلف الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، بلغ من التأثير في الناس مالم يبلغه الفن الجاد نفسه ، وذلك لقربه من نفوس العامة ، ولخفة دمه ، وتمازج صوره وأبعاد سخريته ، ولو قدر لهذا الفن الساخر من يجمعه ويصنفه لكان تراثا فنيا يحمل في مضامينه قيما فنية خاصة ، تضفي على الفن الجاد ظلالا خفيفة تلطف من جفاف بعض آثاره ، ويكون وسيلة ترفيه لا بد منها في مسيرة الفن عموما ٠

وهذا ما يصل بنا الى أن هذا اللون من الفن : ريحانة النفوس ،ومتعة الخواطر ، وسلوى القلوب ، وهو من خصائص الانسان ولوازمه ، يجري مع الفكر الحر ، وينشط مع الطبع الرشيق ، وهو ذو ألوان متعددة منها الزاهي والصارخ والناصع والقاتم والواضح والبهيج والحزين ، فيه المز والحلو والمر ، ومنه الساخن والبارد ٠

وهو على أنواعه المتعددة وطعومه المختلفة لا يكاد يخلو منه عصر من العصور ، ولا أدب من الآداب ، انه ترب الحياة ، ولدة الفكر ، وصنو العلاقات الانسانية ، والسمة الدالة على طبيعتها وشكلها ، هو للجذلان توكيد لجذله ، وللمحزون تنفيس عن حزنه وتسلية عن كربه ،تبرق له العينان وتنفرج الشفتان، ويرن الصوت ، وتتألق النفس ويعلو لي الفكر ، وتتمايز الشمائل ، فاذا الدنيا فجر ضياء ،وجمال أبدي الاندفاق ٠

محمد غازي التدمري ـ حمص /

في آخر هذا الوقت

شعر : صالح هواري

مَنْ منكم يملكُ قطرةَ حزنٍ

لم يثقبْها رمحُ الماءْ !!

اكتُبها مرثيَّهْ

للأمواتِ . . . وللأحياء

أُقسِمُ : هذا الحزنُ الساكنُ فيكم

طاحونةُ رملٍ . . . وحصانُ هواءْ

آهِ كم أهوى تحليقَكَ يا طيرَ البريَّه

وأحبُّ عيونَكَ يا خبزَ القريهْ

صافية كعيونٍ بدويَّه

حَنَّتها أشواقٌ صوفيَّهْ

لو أملكُ أنْ أفعلَ ما أهوى

لملأتُ الدنيا شذْواً نبويَّاً

فرحاً قرويّاً لا يغضَبْ

أصرُخُ . . . يتكسَّرُ صوتيَ في صوتي

أتنشَّقُ عطراً مرّاً

وهواءً أفيونيَّ السحرِ مهرَّبْ

أتوقَّفُ في معجمِ تكوينِكَ يا عمري

ينهمرُ الوقتُ مرايا عاقرةً

ومدائنَ هشَّهْ

أرني وجهَكَ يا وجهي

أرني قاموسَ الفوضى المزدوجَهْ

أرني قمري معصوبَ العينينِ

يمدُّ يديْهِ الى الموجَهْ

أَرغبُ . . . أولا أرغَبْ

في آخرِ هذا الوقتِ

أغصانُ حقيقتِنا صارتْ

سمكاً يقفزُ وإوزّاً يلعبْ

كلُّ الأشياءِ معلَّبةٌ

من أولِ قطرةِ حبٍّ

حتى آخرِ خصلةِ شوقٍ فينا

فمتى يا وجهَ الشمسِ يجيء زمانٌ

ننهضُ فيه

منْ شرنقةِ الأحلامِ

نُعشِّبُ وجهَ الأيامِ

من الفرحِ الخُلَّبْ ؟!!

١٩٧٩

عيسى الناعوري ... حياته وأعماله

بقلم: عيسى فتوح

يوم الجمعة في ١٩٨٥/١٠/٤ غيب الموت الاديب الدكتور عيسى الناعوري ، أمين عام مجمع اللغة العربية الاردني ، اثر نوبة قلبية وهو في تونس التي كان يزورها بدعوة من مجلة الفكر بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لصدورها ، ويوم الثلاثاء في ١٩٨٥/١٠/٨ نقل جثمانه الى عمان ، حيث دفن في احتفال كبير .

ولد الدكتور عيسى الناعوري في قرية " ناعور " قرب عمان عام ١٩١٨ ، وتلقى تعليمه الابتدائي في القرية والثانوي في المدرسة الاكليريكية بالقدس وعمل في تدريس اللغة العربية وآدابها خمس عشرة سنة في مدارس اهلية في فلسطين والاردن ، كما عمل سكرتيرا ومفتشا لادارة مدارس الاتحاد الكاثوليكي في الاردن ثلاث سنوات ١٩٤٩ـ ١٩٥٢ وموظفا في وزارة التربية والتعليم عشرين عاما ١٩٥٤ـ ١٩٧٥ ولما اسس مجمع اللغة العربية الاردني في ١٩٧٦/١٠/١عمل امينا عاما له حتى وفاته .

حاز على الدكتوراه الفخرية من الاداب من جامعة باليرمو في ايطاليا ١٩٧٦ ومن الاكاديمية العالمية للفنون والثقافة في تايبي ـ الصين الوطنية ١٩٨٢، كما حاز على بعض الاوسمة والجوائز التقديرية من ايطاليا وتونس والاردن ، وشارك في عدد من المؤتمرات والندوات والمهرجانات العربية والدولية والاشتراكية .

كتب مئات الاحاديث والبرامج الادبية لاذاعات عربية وأجنبية متعددة ، وشارك في العديد من الندوات الإذاعية والتلفزيونية في الاردن وخارجه ونشرت اعماله الادبية فيكل من الاردن ومصر ، وسوريا ولبنان ومالطة وتونس وليبيا ، وايطاليا ، وكان يجيد الايطالية ، والانكليزية ويترجم عن الاسبانية والفرنسية

أصدر مجلة " القلم الجديد " ، الادبية الشهرية في عمان ١٩٥٢و لكنها لم تعش الا عاما واحدا وصدر منها اثنا عشر عددا ، منها ثلاثة اعداد خاصة عن الاردن، وليبيا والمهجر ..

أصدر سبعة وخمسين كتابا في القصة القصيرة والرواية والشعر والنقد الادبي والبحث والدراسة والسير والتراجم، والرسائل والادب المقارن وادب الاطفال والاحداث ، والترجمة من اللغاتالاحنبية ، واليها ، والكتب المدرسية ، وله ثلاثة كتب بالايطالية ، وبحوث عديدة منشورة ، فيها وكتابان باللغة الانكليزيةومجموعة شعرية غير مطبوعة باللغة الايطالية .

زار القسم الاكبر من البلدان، العربية وكثيرا من البلدان الاوربية ،

الغربية والشرقية - والولايات المتحدة الاميركية وتايوان وبانكوك ، وكانت له صلة وثيقة بالعديد من اعلام الادب العربي في مختلف اقطار واعلام الادب الايطالي والمستشرقين في كثير من البلدان الغربية اعماله المترجمة الى العربية :

---

١ - اطفال وعجائز (اقاصيص ايطالية مترجمة) دار المعارف - بيروت ١٩٦١

٢ - فونتمارا (رواية ايطالية مترجمة) لانياتسو - سيلونه - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٣

٣ - من القصص العالمي (اقاصيص غربية مترجمة) لجنة التعريب الاردنية - عمان ١٩٦٩

٤ - مأساة الانسان (مأساة شعرية) مترجمة عن الادب المجري - منشورات عويدات بيروت ١٩٦٩ .

٥ - الفهد (رواية ايطالية مترجمة لتومازي دي لامبيدوزا) منشورات عويدات بيروت ١٩٧٣

٦ - الشاعر الايطالي مونتالي (دراسة وترجمات من شعره) مجلة الاداب الاجنبية - دمشق ١٩٧٦

٧ - مختارات من الشعر الايطالي المعاصر - بالعربية والايطالية - مطبعة الف باء الاديب - دمشق ١٩٧٨

٨ - الشاعر الايطالي ليوناردو سنيسغالي مجلة الاداب الاجنبية - دمشق ١٩٧٩

٩ - الباحثون الايطاليون وكتابة التاريخ العربي - مترجم عن الايطالية للمستعرب الايطالي اومبرتو ريتستانو .

١٠ - الشاعران كوازيمودو ومونتالي - صديقان فازا بجائزة نوبل للاداب دراسة مستلة من مجلة الشرق روما ١٩٧٦

١١ - حقيقة افران الغاز النازية - روبير فوريسون (مترجم عن الايطالية) دار الكرمل - عمان ١٩٨٣

١٢ - الرجال والرفض (رواية ايطالية مترجمة لايليو فيتوريني) دار ابن رشد عمان ١٩٨٤

١٣ - روما (مترجم عن الانكليزية في سلسلة ليدي بيرد) مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٨

١٤ - من القصص العالمي (مترجم عن الانكليزية لاندرسن) دائرة الثقافة والفنون عمان ١٩٨١

ومن كتبه التي تتعلق بالاداب الاجنبية :

١ - دراسات في الاداب الاجنبية - سلسلة اقرأ - دارالمعارف بمصر ١٩٧٧

٢ - دراسات في الادب الايطالي - سلسلة اقرأ - دار المعارف بمصر ١٩٨١

كما ترجم لعدد كبير من الشعراء والكتاب الايطاليين المعاصرين منهم جوزيبي اونغاريتي ، واوجينو مونتالي ، ودييغو فاليري ، واومبرتو سابا ، وايلزا مورانته ، وسيرجيو سولمي ، و فيتوريو سيريني ، ونينو موتشيولي ، وايرالدو ميشيا ، ولينا انجوليتي ، وجوزيف فانشولي ، وجبرييلي، وجبرييلي دانونتزيو ، وميللي داندولو، وجوزيف سيزار ابا ، وجوفاني موسكا، والفريدو بانتزيني ، وغراتسيا ديليدا وفيتوريو روسي ، ونيللو سايتو ، والبرتو مورافيا ولويجي بيرانديللو ..

كما كتب عن كل من : اليوت ، واوسكار وايلد ، وسمرستوم واندريه جيد ، وبودلير ، وديستويفسكي ونيرودا، وجول رومان ،وشاندور بيتوفي ، وفاراي غايور ، وميكلوش رادنوتي ، وخريستو

بوتيف ، وفيلسين اندرييف ، وغلاديس باساغويتيا ، وبيدرو مرتينس مونتابث، وخيسوس ريوساليزو ، وتن وين تشونغ ، وايلمر ديكتونيوس ، وغونتر كونراد ، وجورج مارور ٠٠

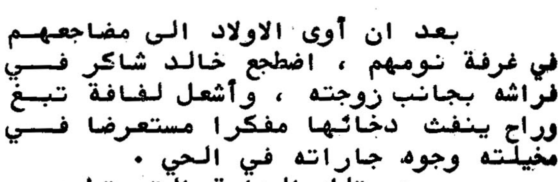
قال فيه المستعرب الايطالي فرنشيسكو غيرييلي : انه من اعظم المشتغلين بالثقافة الايطالية بين العرب اليوم ، ومن اقدر مترجمي الشعر والنثر الايطاليين المعاصرين من فيرغا الى لامبيدوزا وكوازيمودو ٠

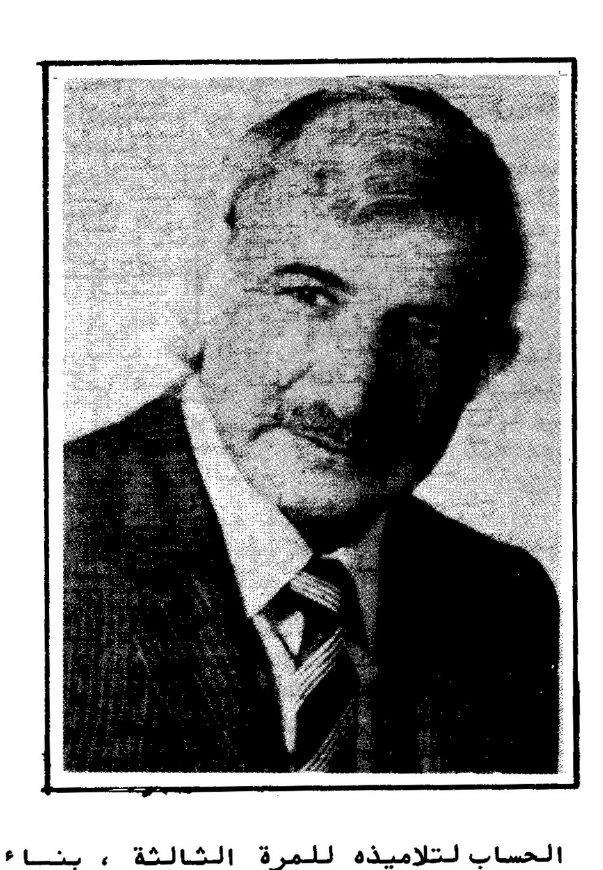
عيسى الناعوري بقلم : عيسى فتوح

بطاقة اعتذار صغيرة

محمد علي برازي

تحية إجلال وإكبار للمعلم العربي في عيده





بعد ان أوى الاولاد الى مضاجعهم في غرفة نومهم ، اضطجع خالد شاكر في فراشه بجانب زوجته ، وأشعل لفافة تبغ وراح ينفث دخانها مفكرا مستعرضا في مخيلته وجوه جاراته في الحي .

من هي تلك الجارة التي تطوعت وأدخلت في رأس زوجته فكرة قضاء عدة أيام من العطلة الصيفية في أحد المصايف السورية هذا العام ؟ ..

صحيح أن أزواج بعض الجارات، ممن أنعم الله عليهم العمل في احدى المهن الحرة ، يستطيعون تنفيذ أمثال تلك الافكار دون أن تضطرب أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية .

أما هو المعلم البسيط في احدى المدارس الابتدائية في مدينة دمشق ، فان مجرد الاقدام على التفكير في تحقيق تلك الفكرة يبعث الهزة في جسده ،وتجعل العرق البارد يتدفق من مسام جسمه ، اضافة الى ماسيحدث من الخلل في ميزانية الاسرة والذي قد يستمر لعدة شهور قادمة .

اعتاد دائما ان يروض أحلامه ويجعلها منسجمة مع امكاناته المادية ، فلا شطط فيها يقلقه، ولا طموحات غير مشروعة تبعث الهموم في نفسه. وهو يكره ان يرى اصحاب الحقوق عليه وهم يعيدون الطرق على باب بيته عدة مرات في اليوم الواحد .

في صباح اليوم التالي وبينما كان خالد شاكر منهمكا في شرح درس الحساب لتلاميذه للمرة الثالثة ، بناء على رغبة بعضهم ممن يستثقلون هضم هذه المادة الدراسية ، ومسحوق الطباشير يجف به من كل جانب ويتغلغل في شعيرات أنفه متسربا الى حلقه ، خطرت له فكرة مفاجئة أثلجت أفكاره المحمومة، فتوقف عن شرح الدرس قليلا وشرد بأفكاره محدثا نفسه : " ان مستوى بعض التلاميذ ضعيف في القراءة والاملاء . والتعبير والحساب فلماذا لا أفكر في اقامة دورة تقوية في هذه المواد للتلاميذ المقصرين في صفي لقاء اجر مادي رمزي يدفعه الذين يحضرون الدورة ، وبذلك أستطيع الحصول على مبلغ لا بأس به من المال ، يؤمن لي قضاء الايام الموعودة، والتي طالما طال تأجيلها في أيام الصيف السابقة ، في أحد المصايف مع الزوجة والاولاد وبذلك

تستطيع زوجتي الصابرة ان تفقأ ليس حبة حصرم واحدة بل عنقودا بكاملة في عيون الشامتات بها من نسوة الحي المترفات المتعجرفات .

راقت له الفكرة وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة ظافرة ، وتدفقت دماء النشوة الساخنة الى وجنتيه ، وتألق في عينيه وميض الانتصار . مط شفتيه استحسانا وهز رأسه هزات خفيفة بين دهشة التلاميذ وتعجبهم من تصرفات المعلم المفاجئة .

سأل نفسه : " كيف تأخرت عني هذه الفكرة المباركة حتى هذه الساعة ؟ .. بعد أن استعرضت في مخيلتي كافة الافكار التي تستطيع ان تحقق لعائلتي الصغيرة ذلك الهدف النبيل دون جدوى " .

أحس بحيوية مفاجئة تدب في أعماقه . التفت الى تلاميذه يواجههم بابتسامة عريضة، ولولا حياؤه ومخافة تأويل تصرفاته في المدرسة لهتف بتلاميذه كما هتف من قبل عالم الفيزياء الشهير " أرخميدس " عندما خطرت له فكرة قانونه الشهير ، فخرج عاريا من الحمام هاتفا في الناس : " وجدتها .. وجدتها .. وجدتها .." لكنه كبح جماح عواطفه المتدفقة ، وآثر ان يمضي في متابعة الدرس ، حرصا منه على سلامة سمعته في المدرسة .

على مائدة الطعام في البيت عرض فكرته على الزوجة والاولاد الذين رحبوا بها ، وقفزوا فوق الكراسي مصفقين مهللين ، وانهالت القبلات على وجنتيه من كل جانب مهنئة على أفكاره النيرة .

تنفست زوجته الصعداء وأحست بكابوس الهم الثقيل ينزاح عن كاهلها وصدرها . منذ هذه اللحظة ستعرف كيف تستعيد العزة لكرامتها المثلومة بين نساء الحي المترفات اللواتي كن يشمخن بأنوفهن وهن يتحدثن عما يفعلنه في الاماكن التي يرتدنها في ايام الصيف الحارة هربا من جو المدينة المشبع بالضجيج والتعرق والقرف ، وبعيدا عن لسعات الهوام والحشرات المؤذية التي تنتقل بين أكوام القاذورات والقمامة المتبعثرة في الحارات وجلد الانسان مزعجة بطنينها وجراثيمها الخدود الناعمة والبشرات الرقيقة . رفعت يديها الى السماء شاكرة الله الذي سيحقق لها أمنية العمر بعد صبر طويل .

في مساء نفس اليوم وبعد ان شاهد أفراد اسرته بعض الفقرات من برنامج الرائي ، أزعجه ضعف المستوى الفني والمضمون الفكري في المواد المقدمة : فأغلق الجهاز متأففا ضجرا ودخل الى غرفته وجلس خلف الطاولة يعد العدة لمشروعه المقبل .

بدأ باستعراض عناوين الدروس ، في الكتب المقررة ودونها على ورقة أمامه ثم أخذ يوزع الدروس على برنامجه الخاص بعد ان قرر ان تستمر الدورة لمدة ثلاثة اشهر تنتهي بنهاية الشهر الاول من العطلة الصيفية ، مضيفا الى الدروس بعض الفقرات الهامة من برنامج العام المقبل لتكون الفائدة أعم وأشمل وقد حرص على الا يكون هناك تضارب في



الاوقات بين مسافات دورته والساعات التي سيشترك فيها في مراقبة الامتحانات الجامعية ، فيتقاضى منها تعويضا يضيفه الى المبلغ الذي سيحصل عليه من الدورة .

عندما فرغ من توزيع المواد الدراسية على البرنامج كانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، تمطى رأسما على شفتيه ابتسامة الرضى عن نفسه ، فقد كان يشعر بحيوية غريبة اثناء انجازه العمل الكبير الذي يناط به تحقيق الحلم الذهبي الذي تاقت اليه النفوس .

خاطر مباغت سحب ذيول البسمة من فوق شفتيه ، وأحل مكانها تجهما وقلقا

على الوجه ، فقد تذكر انه لا يملك سبورة خشبية صغيرة يشرح عليها دروسه الخاصة ..

عض على شفته السفلى مفكراء أسعار الخشب تسجل كل يوم ارتفاعا مذهلا في السوق السوداء ، كما أخبره بذلك جارهم النجار وتكاليف السبورة الجديدة ستلتهم جزءا هاما من مردود الدورة ، حك رأسه مقلبا الامر على كافة الوجوه دون جدوى ..

في فترة الفرصة الاولى وبينما كان يرتشف الشاي الدافىء من كأسه في غرفة الادارة ، ومضت في رأسه فكرة تحل له مشكلته فعزم على تنفيذها فور دخولة غرفة الصف .

سأل التلاميذ بعد ان جلسوا في مقاعدهم : من منكم يعمل والده في مهنة النجارة ؟ رفع تلميذ خامل اصبعه واجاب : أنا استاذ .. والدي يعمل نجارا . فكر قليلا ثم سأل التلميذ سؤالا ضحك بعد ذلك بينه وبين نفسه من سخافته : وهل يجيد ابوك صنع سبورة خشبية ؟ أجاب التلميذ دون ابطاء : نعم استاذ ، ليس يدري بعد ذلك كيف أتبع سؤاله السابق بسؤال آخر سيكون جوابه النفي دون شك في ذلك : هل تعرف كم يكلف ذلك ؟ ارتبك التلميذ من الاحراج و احمر وجهه وأجاب : لا أعلم ذلك ، ثم تابع التلميذ بعد قليل مداريا خجله قائلا : اذا اردت فاني سأسأله ..

قرب تلميذ رأسه من وجه صديقه في المقعد وهمس له بضع كلمات ، هز التلميذ الثاني رأسه رافعا كتفيه ، هامسا بدوره : قل له ذلك بنفسك . احمر وجه التلميذ الاول هامسا : أخجل . استغرب التلميذ الثاني قوله وسأله : ما الذي يدعوك الى الخجل ؟ ..

انتبه المعلم الى حديثهما ، وسأل : بماذا تتهامسان ؟ .. دفع التلميذ الثاني صديقه من كتفه قائلا : هيا ، قم اخبره بنفسك ، نهض التلميذ الاول، وقال متلعثما : عندنا في البيت سبورة خشبية صغيرة . تشبث المعلم بهذا الامل الذي لاح له في أفقه الرمادي ، ووجد في تحقيقه انفراجا لأزمته ، وسأل التلميذ بلهفة :
هل حقا ما تقول ؟ .. وهل يرضى ابوك اعارتها لي ؟ .. رد التلميذ وهو يعبث بأصابعه : سأخبره بذلك وأنقل اليك رده ..

جلس التلميذ بعد حواره مع المعلم في مقعده محمر الوجه ، مبتسما في زهو لأنه بامكانه ان يمد يد المساعدة لمعلمه ، وهذه ميزة كبرى تؤهله لان يكون صاحب الحظوة لديه . بينما انزوى ابن النجار في مقعده متحسرا على الفرصة الذهبية التي تسربت من بين أصابعه والتي كادت ان تجعله هو صاحب الحظوة المفضلة لدى المعلم .

سرت الزوجة بخبر السبورة ، وكادت لا تصدقه ، لو لم يعمد التأكيده لها ، اكثر من مرة ، استرخت اعصابها المتوترة ، وراحت تحس بدبيب الاحلام الوردية تبعث الانتعاش في مخيلتها .

ذات صباح قرع الباب، وعندما فتحه المعلم واجهه التلميذان اللذان كانا يتهامسان عن السبورة في الصف ، وهما يحملان سبورة خشبية صغيرة باهتة الطلاء، ولكنها مقبولة من المعلم ، ادخلاها الى البيت وانصرفا ..

جلس المعلم مفكرا في المكان الذي سيضعها فيه ، ونظرا لضيق غرف البيت ، فقد دسها تحت السرير العريض في غرفة النوم ريثما يجد المكان المناسب لها عند بدء الدورة .

بشائر السعادة هلت على بيت المعلم واسرته . الزوجة تروح وتغدو في ارجائه باسمة الثغر طلقة المحيا ، خفيفة الحركة ، مطمئنة الى تحقيق حلم العمر ، الاولاد أخذوا يتحدثون مع زملائهم في المدرسة والحي بأصوات واثقة والاحلام تلون وجوههم عن الايام السعيدة التي سيقضونها في احد مصايف الوطن .

فكر المعلم في الاجر الذي سيتقاضاه عن كل تلميذ سينتسب لدورته ، وقر رأيه على مبلغ خمس وسبعين ليرة سورية ، واذا اضاف الى المبلغ الناتج عن الدورة بعض ما يستطيع تدبيره من الاستدانة من زملائه ، اضافة الى ما سيتقاضاه من المراقبة الجامعية فانه سيتوفر لديه من المال ما يمكنه من قضاء الايام السعيدة مع الاسرة الحبيبة في المصيف الموعود .

كانت فرحة الملعلم لا تضاهى بعد ان عرض فكرته على تلاميذ صفه ولاقت لديهم القبول والاستحسان ، ثم وردت اليه الموافقة على الدورة من اولياء امور التلاميذ تباعا .

شعر المعلم ببوادر نجاح مشروعة تلوح في الافق كما تلوح رايات الخلاص الوردية لجموع المحرومين المسحوقين في آفاقهم بعد طول انتظار .

بدأت الدورة وبذل المعلم مجهودا كبيرا من أجل افادة تلاميذه ، كان عددهم لا بأس به ، ولكنهم كانوا في نهاية كل شهر يماطلونه في تأدية ما عليهم من الاقساط ، ومع ذلك فقد استمرت الدورة وحصل المنتسبون اليها على الدرجات الجيدة في الامتحان ، شكر اولياء الامور المعلم على جهوده ووعدوه بتأدية ما ترتب عليهم من الاقساط في اقرب وقت .

وسائل اللهو والتسلية الحديثة المتمثلة بالرائي وأشرطة التسجيل المرئية عملت على تدني نسب النجاح في المدرسة . عقد المعلمون والمعلمات اجتماعا طارئا فيما بينهم يتدارسون الامر على كافة وجوهه التربوية والمعيشية قرروا بعد ذلك رفع بعض الدرجات المتدنية للتلاميذ المقصرين لتدارك السوية المنخفضة في نسبة النجاح هذا العام ، وبذلك يدخلون المسرة الى قلوب المدير والموجه التربوي للمنطقة واولياء امور التلاميذ .

«راقت له الفكرة، وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة ظافرة وتدفقت دماء النشوة الساخنة إلى وجنتيه، وتألقت في عينيه وميض الإنتصار، مطّ شفتيه استحساناً وهزّ رأسه هزاتٍ خفيفة».

الامر الوحيد الذي أغاظ المعلم خالد شاكر هو اضطراره لانجاح التلاميذ الثلاثة المقصرين في صفه ، بعد ان استنفذوا فرص الرسوب في المرحلة الابتدائية ، ورغم انهم لا يجيدون قراءة سطر واحد من دروس القراءة دون اخطاء نحوية او لغوية، ويعجزون عن كتابة أسمائهم بصورة سليمة على اوراق الامتحانات الشهرية . وكان نجاحهم عملا بالمادة الحادية والعشرين من نظام الامتحانات العام .

في صباح احد الايام في بداية شهور الصيف ، انهمك المعلمون والمعلمات في توزيع سجلات العلامات على تلاميذ المدرسة ، وتتابعت فوق وجوه التلاميذ فرحة النجاح ودمعة الاخفاق .

فرغ المعلم خالد شاكر من توزيع السجلات على تلاميذه وبدأ باجتياز باحة المدرسة في طريقه الى غرفة الادارة .

شاهد بعض تلاميذ دورته مجتمعين تحت ظل شجرة الليمون قرب نافذة غرفة الادارة المطلة على الباحة ، يتناقشون في علاماتهم التي حصلوا عليها في نهاية العام الدراسي .

دفع الباب وجلس على أقرب كرسي قرب النافذة ، محني الظهر ويداه متدليتان في حجره ، حك ذقنه مفكرا في السنوات الماضية التي امضاها معلما في هذه المدرسة في الحي الشعبي الفقير على سفح جبل قاسيون ، وتنهد محدثا نفسه : " ياه .. كم تمر الايام سريعة بنا ونحن عنها لاهون في معيشتنا ..ياله من عمر طويل قضيته في هذه المهنة ، خمسة وثلاثون عاما وأنا امارس مهنة التعليم ؟ .. صحيح أنني خرجت أجيالا متعاقبة تشعبت خلال الخلايا الاجتماعية بين مهندس وطبيب ومحام وضابط ورجل أعمال .. وأين مني أنا من هذه الفئات من المردود المادي خلال ممارستي هذه المهنة ؟ .. " وضحك.. ضحك في سره طويلا .. وليس يدري ان كانت تلك الضحكة هي قصيدة رثاء ينعي فيها عمره الضائع هباء .. ام ضحكة اعتزاز لصموده في هذه المهنة وهو لا يزال محافظا على قواه العقلية سليمة ؟ ..

وصل الى سمعه شيء من أطراف الحوار الذي كان يتجاذبه تلاميذ دورته تحت النافذة . أرهف سمعه عندما وجد ان الحوار كان يدور حول دورته؛ وكيفية قضاء عطلة الصيف ، سأل أحدهم : أين ستقضون ايام العطلة الصيفية ؟ أجاب التلميذ صاحب الصوت الرفيع : العطلة للراحة بعد الدراسة .. وهي من حقنا ، وقال التلميذ السمين ذو الوجه المستدير ويجب ان نستمتع بها . قال صاحب الوجه المليء بالنمش : بصراحة .. لقد مللنا من الدراسة .. وعلق التلميذ صاحب الوجه النحيل : أنا أكره مادة الرياضيات ، لست أدري لماذا أجدها صعبة جدا ، ولا أستطيع الانسجام معها ؟ قال التلميذ القصير القامة : أنا أحب قراءة قصص التاريخ فهي مفيدة ومسلية ، سأل التلميذ السمين : متى سيسدد والدك بقية الاقساط للمعلم ؟ أجابه التلميذ صاحب الوجه المليء بالنمش : عندما يتوفر لديه الفائض من النقود . عاد

مديقه يسأله : وماذا يعمل والـدك ؟ أجابه : موظفا ، فرد عليه سـاخـرا : التسديد سيكون بعد زمن طويل : أكثـر الموظفين يستدينون في الايام الاولى مـن الشهر ، قال التلميذ المورد الوجنـات مفاخرا : استأجر لنا والدي شقة سكنيـة مفروشة في مصيف رأس البسيط وسنمضـي هناك شهرا كاملا ، أطلق الجميع صفيـرا متواصلا من أفواههم ثم صرخوا مبهوتين : ياه .. شهرا كاملا على شاطئ البحـر ؟، سأله احدهم : ماذا يعمل والدك ؟ أجابـه متباهيا : تاجر بناء .. ومهن أخـرى حرة ، قال التلميذ الطويل القامـة : أنا وأخي سنمارس لعبة كرة القدم والسباحة في نوادي الشبيبة الصيفية .

غابت أصواتهم عن المعلـم وهـم يودعون بعضهم ليلتقوا من جديد في بداية العام الدراسي القادم .

ضحك المعلم بينه وبيـن نفسـه ضحكة صغيرة باهتة ، ساخرا من الوهـم ، الجميل ، الذي عاش لحظاته المضيئة فـي الايام السابقة ، بلع ريقه ليرطب حلقـه الجاف ، ولعق شفتيه بلسانه رافعـا حاجبيه في تساؤل مبهم " ايه ..يازوجتي العزيزة المسكينة ، بقية الاقسـاط الشهرية التي عقدنا عليها الامال الكبار ستدفع لنا عندما يتوفر الفائض مـن المال في جيوب الموظفين ، وقد يمتـد اجل الدفع طويلا ، ومعنى ذلك يجـب ان تقري بالواقع الرمادي مثلي ، ولكنـي أشك في أنك ستملكين الشجاعة الادبيـة التي تؤهلك لأن تقبلي مثلي فكرة قضاء الايام الموعودة في مصيف الاحلام ، علـى انها كانت مجرد توارد خواطر وأمنيـات هزيلة على مخيلات مهيضات الجناح فـي ليالي الفرح المعتم ؟ ..

أم أنك ستشاطين غيظا وغضبـا وتنهالين بالسباب والشتائم على رؤوس التلاميذ وأوليائهم الذين مكروا بوهمك الجميل ساخرين ؟ ..

لا شك انك ستندبين حظك التعيـس الذي ربط حياتك بحياة موظف بسـيط ، أمضى خمسة وثلاثين عاما من عمره ، يقدم فيها ذوب روحه ، ووقدة عمره وخلاصـة أحلامه قربانا على شرف المهنة ، دون أن يكافأ بتحقيق حلم العمر لزوجتـه وأولاده بقضاء عدة أيام من الصيف فـي أحد مصايف الوطن التي طالما حـدث تلاميذه وعائلته عنها وهو يتلمسـها بيديه على الخارطة الكبيرة وفوق صفحات كتب الجغرافيا .

نبهه من شروده صوت المديـر المشروخ متوجها الى المعلمين والمعلمات في غرفة الادارة : الله يعطيكم الصحة ، لقد تعبتم هذا العام ايضا وأديتـم الواجب باخلاص ، نحن الجنود المجهولـون لا ننتظر المثوبة الا من الله ومن راحـة ضمائرنا ، يشهد الله ان مهنتنا مضنيـة وشاقة وتستحق الاجازة الطويلة في أشهـر الصيف ، أمدكم الله بالقوة لنتابـع معا المسيرة الطويلة ، والى اللقاء في العام الدراسي المقبل وكل عام وأنتـم بخير ، همست الانسة فيحاء لزميلتها في أذنها : مديرنا لا ينسى في نهاية كل عام دراسي ان يتحفنا بموعظته العصماء التي حفظناها عن ظهر قلب .. ردت عليهـا زميلتها هامسة : انه هو هكذا دائما ، يحب المجاملات في كافة المناسـبات ، عادت الانسة فيحاء تهمس لها : متـى نتخلى عن هذه المجاملات ونضع الاصابـع على الجرح الذي نعاني جميعنا منـه ؟ همست لها زميلتها : تقصدين اوضاعنـا الاقتصادية المتدنية ؟ همست الانسة فيحاء معظم العاملين في مهنة التعليم اتجهوا الى العمل الاضافي حرصا منهم على نقـاء سمعتهم المهنية بين الناس ، تنهـدت زميلتها : ايه ..

نهض المعلم خالد شاكر بـدوره وصافح المدير وزملاءه وزميلاته ، وتبادل مع الجميع عبارات المجاملة التقليدية ،

غادر الجميع المدرسة وتولـى المستخدم الكهل اغلاق باب المدرسة الكبير وراءهم متمنيا لهم اجازة طيبة .

سار خالد شاكر في الطريـق بخطوات متباطئة كمن يمشي خلف نعـش آماله ، جارا قدميه ، وبقايا ابتسامـة شاحبة متناثرة فوق شفتيه ..

اتجهت قدماه نحو البيت ، حسب في ذهنه حصيلة دورته للمرة العاشـرة ، فوجد ان المبلغ المتوفر لديه لايتجاوز المئتي ليرة سورية ، والباقي أضحـى دينا بعيدا تسديده في ذمة الزمـن . وعندما سأل محاسب دائرة الامتحانـات في الجامعة عن موعد دفع تعويضـات المراقبة هذا العام ، اجابـه ان التعويضات ستدفع في بداية العـام الدراسي القادم بعد ان يتسنى له تنظيم الكشوف بأسماء المراقبين .

اي أن ما لديه لا يكاد يكفـي لقضاء يوم واحد مع عائلته في احد مصايف الاحلام .

توقف قليلا ، وفكر ، أشعل لفافة تبغ ، نفث دخانها متضايقا في الهواء ، فجأة حول وجهة سيره الى طريق فرعـي يفضي به الى مقهاه المفضل .

جلس خلف الطاولة الصغيرة المتسخة وطلب كوبا من الشاي الساخن ، اتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يراقب بعينين ساهمتين حركة الحياة والناس في الحي .

خطرت له فكرة فعزم على تنفيذها لعله يجد في ذلك الراحة لافكاره القلقة واعصابه المتوترة .

نادى عامل المقهى وطلب منه ورقة صغيرة بيضاء ، وأخرج قلمه من جيبه الداخلي وبدأ يسطر لزوجته واولاده بطاقة اعتذار صغيرة يعتذر فيها عن عدم تمكنه هذا العام ايضا من انجاز وعده بقضاء عدة ايام في احد مصايف البلاد الجميلة ، مقسما لهم انه لا يد له في اجهاض تطلعاتهم النبيلة ، والمشروعة ، وقد بذل جهده في السير في كافة السبل التي تعمل على تحقيق تلك الاحلام ، ولكن سوء الطالع الذي لازمه في محاولاته كان يخيب له ظنه .

وختم بطاقة الاعتذار بقوله : " آمل .. وكلي ثقة بالمستقبل ، ... ان أستطيع تحقيق حلم العمر في صيف قادم ، أرجو تعاونكم معي بالصبر وعدم فقدان الامل بالمستقبل ولكم مني كل المحبة والاعتذار " ..

طوى الرسالة بيد باردة واصابع مرتعشة ودسها في جيبه بعد ان قرر ان يضعها على المنضدة الصغيرة في صباح اليوم التالي لتقرأها العائلة بعد مغادرته البيت الى المقهى .

أرخى ساعديه على الطاولة ، ومال بجسمه الى الامام ، وبدت له وجوه الناس امامه وكأنها تترى بلا معالم وزحام السيارات و الحيوانات وكأنها تأتيه من عالم آخر ..

أحس فيما يشبه الحلم ان دمعة قهر حزينة ساخنة تسربت بصمت تحت أهدابه ، منسابة ببطء فوق وجنته لتستقر على ظهر يده ..

انتفض ملتفتا حوله كالمذعور خشية ان يرى دمعته احد من رواد المقهى سارع يجفف عينيه ، بمنديل ورقي وتنهد متحسرا وهو يهز رأسه ، بينما أخذت أصابعه المضطربة تنقر على الطاولة بعصبية ..

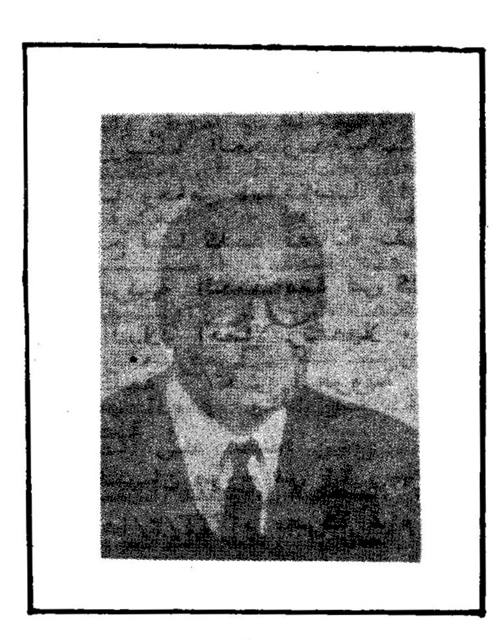
محمد علي برازي
دمشق

فالحب يبني

بشّت لك الدنيا فهل تتجهّمُ	وتضاحكتْ - فاضحكْ لهنّ - الانجمُ
عجباً أمحرومٌ يسبّح ربه	حمداً ، ويجحده غنيٌّ ، ينعمُ ؟
تحلو الحياة لمن يراها حلوة	ولمن يراها مرة تتعلقم
فانظر الى دنياك نظرة شاكر	تصبح نعيما - أوأحب - جهنم
ان البشاشة والمحبة توأم	فليسبقن خطاك هذا التوأم
بالحب قد تصل الثريا بالثرى	فالحب يبني والضغينة تهدم

زكي قنصل

نيران على القمم
سيرة ذاتية
وأزلنا التجزئة



سعيد ابو الحسن

كان لاحداث ١٩٤٣ هذه اثرها الكبير في تسارع الاحداث . فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، ان الاستقلال الاداري والمالي سيظل الذريعة الجاهزة للمنتفعين بالتجزئة ليثيروا الشعب ضد الحكم المركزي وليحولوا دون اية خطوة وحدوية حقيقية سيكون من شأنها انهاء عهدهم ، وبقدر ما كنا نتحرك لانهاء الوضع ، كان خصومنا يتحركون للابقاء عليه .

أواخر ١٩٤٣ اقام احد الشبان من آل الاطرش مأدبة غداء ـ عشاء ـ موعدها حوالي غروب الشمس ـ وكان يتخذ نهجا وسطا فدعا الى المأدبة اشخاصا ينتمون الى لفئات المختلفة ـ وكان افراد شباب العروبة من المدعوين ، ولعلهم قصدوا بالدعوة اكثر من سواهم .. وحين اكتمل عدد المدعوين واقترب موعد تناول الطعام وقف قائد الدرك ، بطل الردة التشرينية ، وقال ما معناه : اننا نسمع ـ نغمة جديدة في بلدنا ـ نسمع اسم " شباب " وغير ذلك ـ اننا لا نقبل بأن يرتفع اسم " شباب " ابدا في هذا البلد ـ اننا الخ .. لم يكن من الممكن السكوت على هذا الهجوم المفاجى واستغلال الدعوة لهذه المآرب الدنيئة . ولذلك رددنا على الهجوم في منتهى العنف وقلنا : اذا كنتم قد اقمتم مأدبة ودعوتم الناس لتتحدوهم وتحاولوا المس بكرامتهم ، فأنتم مخطئون ، ان الشباب حين يثبت وجوده في قضايا وطنه لايحتاج الى اذن من احد ولا يقبل وصاية احد ولا يسمح لأحد بأن يوجه اليه أي تهديد صريح او مبطن ـ والاصبع التي تمتد الى الشباب باتهام ما احرى بها ان ترتد الى رأس صاحبها وصدره ، اما الشباب ففوق متناول المغرضين وتطاول المتطاولين

واذا كنتم لا ترجعون عن غييكم فسننسحب من مأدبتكم وسنلتقي في مجالات اخرى .
وكما هي العادة قام بعض افراد العائلة ومنهم صاحب الدعوة ، فاحتجوا على قائد الدرك واظهروا انهم لا يقبلون بأن تستغل مأدبتهم لأي غرض سيء ، ووجهوا الى الشباب اعتذارا لبقا .
بالنسبة الي ، كانت جماعة شباب العروبة التي تكونت في قلب المعركة آخر مظهر مموه تمر به حركتي القومية العربية التي كنت انوي اعلانها صريحة واضحة " حركة عصبة العمل القومي " لقد اشرت الى بعض المظاهر المموهة الاخرى السابقة (جمعية العمل : العصبة المتمردة ، رابطة الجبل الادبية). اما شباب العروبة فكانت مقدمة للحركة الشعبية العامة التي ستتولاها هيئة الشعب الوطنية من اجل تنفيذ برنامجها الموضوع عام ١٩٤٣ ، والتركيز على البند الاول من هذا البرنامج وهو الغاء الاستقلال الاداري المالي . الذي دلت كل التجارب على انه سبب كل علة ونقطة الضعف في كل حركة . وكانت نقطة البداية - الشرارة - في مرحلة العمل الجديدة بيان وجهناه " الى الشعب الجبلي الكريم - من ، " جماعة العروبة " ، واورد هنا بعض الفقرات من هذا البيان الذي يعتبر بمثابة خطة عمل : .. " لذلك اصبح من واجب جميع المشتغلين بالقضية الوطنية ان يتنادوا وينظموا صفوفهم ليتمكنوا من خدمة وطنهم باكثر ما يكون من القوة والنظام والاستمرار - وهذه " جماعة العروبة " تفتح باب التنظيم على مصراعيه وترحب بكل مخلص يغار على المصلحة العامة ويتفانى في سبيلها ، وميدان العمل الوطني واسع يقتضي تعاون الجميع وتساندهم . واول مايجب ان نعمل له في السياسة الوطنية في الجبل هو الغاء الاستقلال الاداري المالي الذي يقف حائلا بيننا وبين كل اصلاح وتقدم ، حتى صارت جميع المحافظات السورية ، بفضل الوحدة المركزية ، في حال احسن من حالنا رقيا وثروة وعمرانا فيجب ان نعمل لتحسين حالة الجبل الثقافية والزراعية والصناعية وللمحافظة على حقوق الفلاح وتقدمه .
" اما في السياسة الوطنية السورية القومية العربية العامة فنساهم مساهمة فعالة في خدمة القضية العربية التي يجب ان تستقر في نفوسنا وأفهامنا كقضية قومية رئيسية علينا ان نغذيها بالافكار والاعمال والاموال والنفوس .. وهذا يقتضي مكافحتنا لكل حزبية ضيقة تخالف المصلحة العامة ولكل نزعة انفصالية ولكل استثمار او استغلال او استبداد او استئثار او نفعية او انتهازية او تواطؤ مع الاجنبي ضد مصلحة البلاد . ولتكن امنيتنا جميعا ان تتسلم حكومتنا الجيش وتنظمه وتقويه بقيادة رئيس جمهوريتنا المحبوب بحيث يصبح موضع فخرنا وحامي استقلالنا وامجادنا ، وبحيث تصبح لنا كلمة فعالة نقولها مع البلاد العربية المتضامنة في كل قضية ، تهم هذه البلاد اجمالا وتفصيلا ..وينتهي البيان بكلمة " تحيى العروبة " وهي تحية العصبة .
والبيان مؤرخ في ٢١ ربيع الاول - ١٣٦٣- و ١٩٤٤/٣/١٥م معركة عام ١٩٤٤ كانت بحق معركة الغاء الاستقلال الاداري المالي بالجهود المبذولة ليل نهار منذ تكوين هيئة الشعب الوطنية على اساس مبادىء واضحة عام ١٩٤٣ ،واكتساب هذه الهيئة

الصلابة اللازمة خلال معركة الانتخابات ثم خلال الردة الانفصالية التي وصفتها سابقا (والتيهزت مواقع الشعبيين في السويداء لفترة قصيرة لولا صمود افرادها اصبح الرأي العام مهيأ لخوض معركة حاسمة من اجل الغاء الاستقلال المالي ـ الاداري وجعل الجبل محافظة مندمجة كسائر المحافظات ، فما يقوم به الانفصاليون في الجبل كان مخططا له من قبل وكيل المندوب الفرنسي ومستشاريه الاداريين في السويداء وصلخد وشهبة ، ولا ينقذنا منهم غير الغاء هذا الوضع الذي اوجدوه لصالحهم .

وهنا لا بد من كلمة عن موقف الحكومة المركزية من الموضوع : في تلك الاثناء كان سعد الله الجابري الذي شكل الحكومة بعد الانتخابات يدلي بتصريحات يستشم منها انه غير مهتم بمصير محافظة الجبل ـ وكان الاستاذ محمد التابعي الذي زار سورية قد نشر حديثا مطولا عن هذا الموضوع لخص فيه رأي الحكومة المركزية بكلمات قاتمة متشائمة تدل على ان تلك الحكومة لا تدرك معنى الوطن والوحدة والمصير ولا تحسب حسابا لرأي الشعب : قال التابعي ما مؤداه : ان الحكومة لا يهمها مصير هذه الصخور السوداء القاحلة ، فلتذهب الى الاردن اولتبق مع دمشق ، اولتبق مستقلة ، لا مع دمشق و لا الاردن ، ان هذا هو شأنها : والمهم الا تثير المتاعب ، وحين اطلعت على المقال صعقت امام هذه السطحية ، وهذه اللامسؤولية صعقت امام هذه السطحية وهذه اللامسؤولية في معالجة قضايا وطنية مصيرية كهذه وكتبت جوابا موجها الى الاستاذ التابعي (ومن وراءه) نشر في جريدة الاحرار (او (صوت الاحرار) التي كانت تصدر في دمشق آنذاك ، قلت فيه ان الحكومات لا يمكن ان تكون هي التي تقرر مصير ارض الوطن المصونة بالدستور الذي يضعه الشعب وبالثورات وبالدماء وبالتاريخ ، وقلت ان هذه الصخور السوداء هي التي كانت بثورتها العظيمة سببا لاستقلال البلاد ولوصول الوزراء الى مناصبهم وهي متمسكة بوحدتها آشاءت الحكومة آم لم تشأ ..

وقد تأكدنا من ان هذا الذي نشره التابعي هو رأي الحكومة حينما ذهبنا ، نحن (شباب العروبة) مع عدد من الرفاق لمقابلة السيد سعد الله الجابري ،فلقد قال لنا بالحرف الواحد تقريبا : "أنا لست مهتما بوحدتكم مع دمشق او بقائكم مستقلين ماليا ـاداريا ـ ما يهمني هو الهدوء عندكم ـ فانتم تزعجونني بخلافاتكم ـ وافضل سورية هادئة من دون الجبل ، على سورية مضطربة مع الجبل " وآجبناه الجواب الذي يستحق .. وخرجنا مغضبين .. .

حين خرجنا من المقابلة واجتمعنا بالفندق ، استعرضنا هذا الكلام فوجدناه خطيرا جدا ، وخطرا كل الخطر : أهذا موقف رئيس وزارة وطني ؟ وخلصنا الى النتيجة المنطقية التالية :ان الغاء الاستقلال الاداري ـ المالي قضيتنا نحن ، لا قضية الحكومة المركزية ولا غيرها ـ واذا كان الحكام الوطنيون يستبعدونها لأن ليس من ورائها فائدة مالية ترجى (للخزينة المركزية) فان الشعب في المنطقة وفي بقية انحاء الجمهورية لا يرى ان المعركة المقبلة حتما مع فرنسة تتطلب اجتثاث جذور مخابراتها وعملائها من المحافظتين المستقلتين ماليا واداريا ، السويداء واللاذقية ـ واذا

نجحت حركتنا في السويداء فاللاذقية ستقوم بالعمل ذاته (وقد اثبتت التجربة صحة هذا التوقع) ولذلك نرى ان المقابلة الهادئة لن تؤدي النتيجة – وانه لا بد من معركة حقيقية نخوضها في الجبل من اجل بلوغ الهدف الوطني الوحدوي – لا بد من العنف .

وفور عودتنا الى السويداء عملنا على عقد اجتماع شعبي عام عرضنا عليه نتائج مقابلتنا لرئيس الوزارة وتمخض الاجتماع عن قرار خطير هو : مقاطعة أجهزة الحكم الانفصالي القائم والامتناع عن دفع الضرائب للحكومة المحلية حتى يلغى الاستقلال الاداري المالي – وبدأ الغليان بعد انقضاض الاجتماع وتصاعدت المقاومة السلبية (العصيان المدني) في سرعة مذهلة .

ولم يأت شهر نيسان ١٩٤٤ حتى بلغ التصاعد الذروة ، وبعد ظهر ٣ نيسان ١٩٤٤ خرجت تظاهرة مسلحة من السويداء باتجاه سراي الحكومة وهاجمت السراي وحطمت الابواب والنوافذ وبعثرت الاوراق والسجلات وشملت مقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب جميع القرى – وتلقت هيئة الشعب الوطنية تأييدا منقطع النظير .

كان حسن الاطرش قد عاد محافظا بعد ان افلتت الوزارة من يده على الرغم من المناورة – الردة . وبعد تفاقم الوضع السياسي داخل الجبل وعزلة الحكومة المحلية ما عدا المحاكم ، رد المحافظ على الاجتماعات الشعبية باجتماع عقده في " عرى " ضم افراد العائلة وانصار الوضع القائم ، ولكن تبين ان الاجتماع هزيل بالنسبة الى احد الاجتماعات الشعبية الذي عقد في المزرعة وضم بين ١٥ و ٢٠ الف رجل . واقتنع المحافظ الممتاز وجماعته اقتناعا ضمنيا بأن معركتهم خاسرة ، ولكنهم اعلنوا مقررات اجتماعهم بالمحافظة على الوضع القائم لأنه اكثر فائدة للجبل واكثر محافظة على الكيان والكرامة والعادات والتقاليد وسائر هذه المعزوفة التي يرددها الانفصاليون في كل زمان ومكان.

خلال ذلك كان لي نشاطي الخاص – ضمن ءلخ٧ ءل٣)
ضمن الخط العام – كنت أؤسس فرع العصبة في الجبل : بدأت عام ١٩٤٢ بافراد قلائل ، ثم توسعت قليلا عام ١٩٤٣، واخذت أتوسع اكثر عام ١٩٤٤، اردت ان يكون لنا تنظيم صلب داخل هيئة الشعب الوطنية تحسبا للطوارىء ومن اجل التمكن من التوجيه ونشر الافكار التقدمية والمبادىء الوطنية السليمة بين سكان القرى وبخاصة خلال الاجتماعات العامة . وكان الوضع في شهبة بوجه خاص يشجع على التنظيم. فقد كانت فيها مجموعة من الشبان الواعين المتكتلين (معلمين ، تجارا ، فلاحين، موظفين) والقائمقام الشاب طرودي عامر، رفيق ايام الدراسة يضفي عليهم حماية تساعدهم على العمل ، ويتعاون معهم سرا ، وفي ٢٨ نيسان ١٩٤٤ . * مثل الشباب رواية تمثيلية استخدم فيها الملعب الروماني – لأول مرة بعد انقضاء عهد الرومان – واستخدمت طريقة التنوير ذاتها التي ابتكرناها حين اتخذنا من المدارس مسارح ، واستخدمت الكواليس للدخول والخروج والتلقين – اما المشاهدون فكانوا جميعا على مدرجات الملعب وهي تتسع لحوالي الف مشاهد وكانت مشغولة كلها – والقيت خطابا خلال الرواية عن اهداف الشباب .

كان مستشار القضاء الفرنسي يتجاوز

حدوده كثيرا – وقرر الشباب ان يبدؤوا عملية ازعاج (اقلاق راحة) ضد المستشار الفرنسي ليحملوه الى الرحيل ، وبدأت عملية يسمونها عندنا في الجبل (مداورة وهذه العملية كانت تستعمل من قبل طالبي الثأر ضد الواترين او المطلوبين بالثأر : وهي تتم بوسائل متنوعة اهمها اطلاق العيارات النارية باتجاه منزل المطلوبين او طرق ابوابهم وتهديدهم بالكلام او وضع فشكة برصاصتها تحت وسادة المطلوب ، او في مهباج قهوته ، او في احد اباريق القهوة ، او في اي مكان آخر داخل المنزل : وهذا يعني : " لو اردنا قتلك لفعلنا ، فاتعظ واسع الى حل القضية " – وربما اشتقت لفظة المداورة (من الحوم حول الدار) اومن القيام بذلك دوريا في مواعيد معينة ، او قيام كل شخص او كلمجموعة في احدى الليالي ، وغيره او غيرهم في ليلة اخرى ، وفي اللغة : المداورة هي المعالجة وربما قصد بها هذا المعنى ، وما اتبع مع مستشار القضاء كان الاسلوب الاول وهو اطلاق النار ليلا – في ساعة متأخرة من الليل – باتجاه منزله ، واقلاق راحته ، على الرغم من وجود الحرس السيار الخاص به ، المهم ان ما صار يجري في شهبة اقض مضاجع

الفرنسيين وفتح عيون ابناء الشعب على مايمكن عمله في المستقبل القريب ...

هذه السنة في ٦ ايار احتفلنا بذكرى الشهداء والقيت خطب وطنية وقصائد من جملتها قصيدة الاستاذ سلامة عبيد ، وقصيدتي – ولم نعد تفلت مناسبة وطنية او قومية دون ان نفيد منها للتوعية وزيادة وحدة الجبهة المناضلة وتمتينها

الا انه لا بد من التنويه بحادثة سيكون لها اكبر الاثر في تطور الاحداث وفيحسم الموقف مع الفرنسيين حين تدق الساعة : في الاسبوع الاول من حزيران ١٩٤٤ كنت في منزلي حين قدم لزيارتي ضابط شاب برتبة ملازم اول ، وسيم ربعة مفتول العضلات، يشع الذكاء من عينيه وتتفجر الحيوية من كيانه كله . وحين استقبلته على الباب ادى التحية العسكرية – فدهشت ، فقال " هانيء " فأجبته " هانيء " وكان اسم "هانيء " ابن مسعود الشيباني " هو كلمة السر والتعارف بين العصبيين ، وكان الزائر هو فضل الله ابو منصور ، وكان يحمل الي رسالة من الاستاذ علي ناصر الدين ، رسالة تعريف فهمت منها ان الضابط انتسب الى العصبة في لبنان ايام كان قائدا لسرية حرس المفوض السامي المؤلفة من الفرسان الجبليين ، واشرقت في ذهني فجأة صورة لمخطط كنت غافلا عنه حتى ذاك التاريخ وهو جعل التنظيم مشتركا بين المدنيين والعسكريين ، – واعتماد الطريقة السرية ، بالنسبة الى العسكريين ، لأنهم كانوا تابعين لقيادات فرنسية ، ولأن الفائدة الكاملة انما ترجى من بقاء انتمائهم سريا – ووجدت أن العصبة في بيروت قد ابتكرت اسما حركيا للعسكريين فأطلقت على الضابط فضل الله ابو منصور اسم " ابن الجبل " .

وبحثت مع الزائر كل المستقبل الذي نريده ، واستعرضنا اسماء الشبان من العسكريين ضباطا وضباط صف وجنودا ، وركزنا على العناصر المثقفة قدر الامكان ، شرط ان تكون موثوقا بها ، ولم أخف عليه انني كنت قبل تلك الساعة

شديد الحذر من الذين تطوعوا في الجيش بقيادة الفرنسيين ، فاقنعني بعكس ذلك ولفت نظري الى ان هذا التطوع كان الحل الوحيد امام شبان يحبون الحياة العسكرية بالفطرة ، ولا يجدون جيشا وطنيا ينتمون اليه ، وهم فقراء ولا عمل لهم ، الا انهم مخلصون لوطنهم وامتهم ، والايام ستثبت ذلك ، واتفقنا على ان يكون هو رئيس القسم العسكري من التنظيم وان يكون مسؤولا امامي مباشرة .

واتفقنا على تعميم الاسم الحركي للعسكريين فيكون الاسم (ابن الجبل رقم كذا) وكان فضل الله (ابن الجبل رقم ١) والاتصال بيننا يتم مباشرة وشفهيا مبالغة منا في حفظ السرية التامة - واتفقنا على ان يكون في كل سرية مسؤول مرتبط به مباشرة والاعضاء يجهل بعضهم البعض الاخر .

والمسؤول وحده يعرفهم ، ويجبي منهم الرسوم الشهرية ، وانتشر التنظيم العسكري الى جانب التنظيم المدني ، واصبحنا قوة المستقبل التي يحسب لها حساب ، كل ذلك ولم نتخل عن دورنا في هيئة الشعب الوطنية لتنفيذ منهاجها المرحلي .

وكنا نحاول - قدر المستطاع - ان نطعم مبادئ الهيئة العامة ببعض مبادئ العصبة الخاصة فنستعمل في البيانات بعض التعابير الحديثة التي هي فوق مستوى التفكير العادي ونحاول ان نشد باتجاه احلال علاقات اجتماعية جديدة قائمة على اساس التقويم الشخصي (اخلاق ، مبادئ ، اهداف ، ثقافة ، نشاط ، زمالة عمل ونضال) محل العلاقات القديمة القائمة على اساس الوراثة والاعتبارات العائلية والقروية والاقليمية التي تأخذ الانسان على علاته شرط ان يكون ابن العائلة او القرية او المنطقة ويغتفر له كل اخطائه على هذا الاساس ، كما اخذنا نقل من الاهتمام بالمجد الشخصي ونقيس الشخص بمقياس دوره في المجتمع كدور الحجر الواحد في البناء ، لا هو كل شيء ، ولا هو لاشيء ، بل هو ضروري وله كامل اهميته ، ولكنه يجب الا يعتقد ان الدنيا بدونه خواء ، وان البناء من دونه خراب .

وكذلك ننشر الوعي التاريخي القومي ، والجغرافي العالمي : فنحد من تعصب الفرد لبلده وطائفته ، وحصر العصبية بالوطن كله ، والامة كلها ، مع عدم الاقلال من قيمة الاوطان الاخرى والامم الاخرى ، فأن يعتقد الانسان الامي انه لولا قريته او اقليمه لخرب العالم ، ولولا عائلته واهل بلده تعقمت الدنيا ، شيء ضد الطبيعة الامور ، وضد العقل ، وضد العلم وسعة المعرفة ، وكنا نطبق ما نعتقد على سلوكنا الشخصي : فلاوجاهة ولا تزاحم على الدخول او احتلال المقاعد ، او الحصول على المنافع والمكاسب ،، ولا حديث الا اذا كان هنالك من راغب اخر في الحديث ، ولا ادعاء بالعلم الكامل ، والصواب الدائم ، والمقدرة على اجتراح العجائب ، وتحقيق المعجزات ، بل تواضع ، وعمل صامت ، مع رفض الهوان ، والاهانة ، والاعتداء ، وعلى الاخص اذا صدرت عن افراد او جماعات ذات مزاعم وراثية او زعامية ..

كانت مقاطعة الحكومة المحلية (العصيان المدني) تعمل عملها المتصاعد كأنها اللولب الذي يزيد نفاذه عمقا لدى كل حركة ، وحين فشل اجتماع عرى

الهزيل ووجد حكام الجبل انفسهم معزولين تماما ، دعوا مجلس الادارة للاجتماع ، وكان افضل اجتماع لهذا المجلس في حياته ، فقد قرر المجلس - وقد قدم اعضاؤه من مختلف المناطق وهم مطلعون على قوة الحركة الشعبية وعموميتها - قرر الاستجابة الى مطلب الجماهير بالغاء الاستقلال الاداري - المالي وتحقيق الوحدة السورية الشاملة .

صدر القرار في ايلول (على ما اذكر) ورفع الى الحكومة المركزية لتصدر قانونا بالموافقة عليه - وحضرنا جلسة المجلس النيابي يوم ١٩٤٤/١٢/٣١ التي خصصت لدراسة الموضوع ، وخطب رئيس الوزراء الاستاذ فارس الخوري خطابا قوميا شاملا استعرض فيه تاريخ الجبل وفضله في مراحل النضال التحرري في العهدين العثماني والفرنسي ، وقال ان الجبل دفع ضريبة الدم عن الوطن كله فليس كثيرا ان تمده الدولة بما يحتاج اليه من مال في سبيل العمران ونشر العلم ، واعتبر عودة الجبل الى الوحدة حدثا تاريخيا بارزا ، وكان التصفيق حادا طويلا ، وأقر مشروع القانون بالاجماع وتظاهر نواب الجبل بأنهم في طليعة المطالبين باقرار القانون ، وقبلنا في قرارة انفسنا بهذا التظاهر لأن الوطنية الصحيحة لا ترض بتأييد الحقد مع ما يتطلبه العقل من تحفظ وانتباه بالنسبة الى تصرفهم في المستقبل

واطل عام ١٩٤٥ على الجبل وهو محافظة عادية من المحافظات السورية لها مالها وعليها ماعليها : لا مستشار اداري ، ولا مستشار اقضية من الفرنسيين بعد الان ، ولا مجلس ادارة ، ولا محافظ ممتاز ،

المراكز التي بقيت للفرنسيين قيادة القطعات الخاصة المعروفة بالمجتمع الدرزي ، ومجموعها حوالي الف ومائة خيال كلهم من ابناء الجبل بطوائفه المختلفة ، بينهم نحو خمسة وعشرين ضابطا فرنسيا اكبرهم برتبة مقدم وعدد كبير من الضباط وضباط الصف المحليين ، ولهم مخابراتهم الخاصة - وكان يرأس هؤلاء الضباط المقدم (قومندان) سارزان ممثل مندوب المفوض السامي بالمحافظة (ومندوب المفوض السامي مركزه دمشق ، وهو مرتبط مباشرة بالمندوب السامي او ممثل فرنسة في بيروت لدى دولتي سورية ولبنان المستقلتين من الناحية القانونية المحتلتين من الناحية الواقعية) .

الطفولة ونشيد البقـاء

أحمد دوغان

تجمّع غيم، وصار السحاب
جيوشاً تجوب الفضاء،
وأسمع شيخاً يقول:
وبعد الغيوم يجيء المطرْ
فتصحو المراعي، وترنو طيوف البشرْ
الى كل خير
ويصرخ طفل صغير يقول:
- فلا تصدق قطعا لغيم المصيف
فهاتوا النجوم..
وصحو النجوم..
وعرافة من صميم الفلكْ
أيظمأ هذا الوجود
كعير على ظهرها الماء ليس يُرى
وتبحث عن سر هذا الظِماء؟!
وهذي المدينة عطشى
وفرسانها ظامئون
وتأتي المياه ولا يشربون..!

وتحمل بعض النساء بدون رجال
تهزُّ اليها جذوع النخيل
فتأتي الطفولة.. تأتي الرجولة
ويسأل هذي الأنام
عن الفرس والروم.. عن قهر هذا
تجيب الطفولة في المهد ماذا تقول؟؟
وغزو الغيوم نراه على كل واجهة في
هنا مرّ جيش التتار، ولكن الى المقبرهْ
وعند محطة قطع التذاكر فوق الغيوم
يسجل أن المباراة سوف تكون..!
وجيش الفرنجة كان هنا
يود البقاء..

وظل قروناً يبيع ويشري
ونجمةُ داوودٍ تحسب ألف حساب
تخبيء وعداً، تبيح البغاء
تقول أنا الأنظمهْ

يطل هلال، ويوقد ناراً
وتهزم نجمة داوود لكن تبوح
بسر، توقّف حيث المباراة تأتي
وكان المشيب عليها يقول
تناسخت، يبقى التناسخ حتى أعود
ويأتي سلاح
ويمضي سلاح
ويخضر لون الوجود زمانا
ولكن يغطي السواد فصول الحياة . . !
وتسمع هذي الجيوش نشيدا
عليه نخيل، وتين، وزيتون طور سينين
فتمتد كل الحراب الى المهد تهوي
على كل طفل،
لتسكت هذا النشيد
ولكن على الطعن، والضرب . . يقوى
ويرتفع الصوت في «دير ياسين» و«اسكندرون»
وقبل انقطاع النشيد

تجيء وفود من النخل والشمس . ، من كل نبعٍ
وعند انكسار الأصيل يدوّي انفجار
تعالى صداه . .
ستبقى الطفولة . . يبقى الصغار

الجزائر العاصمة

من الأرشيف

هنري برغسون والأخلاق

د. جميل صليبا

كنا ننتظر بفارغ الصبر ظهور كتاب (هنري برغسون) في الاخلاق. وكنا نشك ، قبل ظهوره ، في قيمة التطور المبدع وطريقة الحدس. الا ان هنري برغسون بدد كل ما يحيط بمذهبه من الشك واخرج لنا في هذا العام كتاب الاخلاق الذي سماه : منبعي الاخلاق والدين (١).

لسنا نستطيع ان نلخص بهذه الكلمة كل ماجاء في كتاب الاخلاق من الافكار الصائبة والاحكام العميقة ، لان كل فقرة لابل كل كلمة من هنري برغسون تحتاج الى ايضاح دقيق وشرح طويل . ولا غرو فهو فيلسوف العصر ، ولم نجد فيلسوفاً بلغ منذ عهد (كانت) و (شوبنهاور) الدرجة التي بلغها هنري برغسون من التفكير العميق والتجريد العجيب والبيان الساحر . اذا قرأته لايستولي على عقلك فقط بل يأخذ بمجامع قلبك فتجد في كل كلمة من كلماته سحراً يدعوك الى ان تكون من اصحابه وتلاميذه. قال (وليم جيمس) في كتاب فلسفة التجربة (ص — ٢٥٦) (٢) : « اقرأ هنري برغسون ، تجد في كل صفحة من صفحاته ، لابل في كل سطر من سطوره افقاً جديداً . فكأنك تشعر بنسمات الصبح او تسمع تغريد الطير ، وكأن اللغة التي يكلمك بها هي لغة الحقيقة والوجود ، لا لغة التعليم التي ينقل غبارها اليك طائفة من الاساتذة الذين تعودوا ان يغربلوا افكار غيرهم »

اجل ان اللغة التي يكتب بها هنري برغسون هي لغة الاخاء ، وطريقته



« هنري برغسون »

هي طريقة الحدس . اما اسلوبه فمعجزة من معجزات الفن وهو « ساحر عجيب » .

وليس يختلف هذا الاسلوب في (كتاب الاخلاق) عنه في « كتاب التطور المبدع » بل تشعر في كل منهما بالدافع الحيوي « Elan vital » الذي يتكلم عنه برغسون نفسه ، ويخيل اليك ان المؤلف لم يغلق لك افقاً ادنى الا ليفتح لك افقاً اعلى . وفي الحق ان للاخلاق كما للدين آفاقاً عديدة

(1)Henri Bergson , Les deux sources de la morale et de la religion , Alcan , Paris 1932
(2) W . James , Philosophie de l'expérience Flammarion . Paris 1924

ولكل افق مرتبة في الكمال تختلف عن مرتبة الآخر . الا ان فيلسوف الحدس ارجع هذه الآفاق المختلفة إلى افقين ، احدهما محدود متناه ، والآخر غير محدود . وهذا الافق المحدود هو افق البيئة الاجتماعية الضيقة التي يعيش فيها الانسان مقيداً بالعادات والتقاليد . اما الافق الثاني فهو افق الانسانية الذي يتجرد فيه الفرد من نطاق الحياة الاجتماعية الضيقة ويرتقي إلى ادراك المثل العليا السامية والغايات المجردة . ولذلك كان الافق الاول ضيقاً والثاني واسعاً ، يخضع الفرد في الافق الاول لضرورة التقاليد والواجبات الاجتماعية كما تخضع الاجسام لضرورة النواميس الطبيعية ، ويتجرد في الافق الثاني من هذا التضييق الاجتماعي ، ثم يرتقي باحلامه الى مناهضة العادات المحدودة والقواعد الضيقة . الحياة الاولى اشبه بحياة المقيمين في كهف مغلق الابواب اما الثانية فهي حياة فضاء لا حد ولا نهاية له . انظر الى واجبات الافراد التي لا حيلة لهم في اختيارها سواء كانت عائلية او وطنية ، فانهم مرغمون على اتباعها بسائق الغريزة وحاكم العادة لانها واجبات اتباعية وذات نطاق محدود ، ثم انظر الى وحي الانبياء واحلام الفلاسفة ودعوة المصلحين تجد انهم لا يرغبونك بسائق التقاليد وضرورة الاجتماع على نتاج القواعد المألوفة ، داخل نطاق المجتمع الضيق ، بل يكلمونك بلغة الالهام والحدس وتجد في اقوالهم ما يدعوك الى الخروج من الافق الضيق ويحملك على اتباعهم . فهناك إذن منبعان للاخلاق والدين اولهما الحياة الاجتماعية الضيقة والثاني حياة الانسانية الواسعة . المنبع الاول محدود والثاني غير محدود . وللانتقال من المتناهي الى غير المتناهي درجات لا بد للمتحرك من المرور بها . والفرق بين هذين النوعين من الاخلاق كالفرق بين الادراك والاحلام . لان الادراك مقيد ثابت ، اما الاحلام فمتحركة ومتبدلة . وهذا ما ينقلنا من السكون الى الحركة وبدخلنا في فلسفة التصوف التي استخرجها هنري برغسون من كتاب التطور المبدع . وهو كتاب السكون والتجديد والابداع والحياة والحب

ومما هو جدير بالذكر ان هنري برغسون لم يترك في كتاب الاخلاق فكرة من فكره الاولى بل تعصب لها ودافع عنها وحرك في افكار تلاميذه دوافع الحياة وعامل الابداع . لم يتراجع امام حملات المنتقدين واعتراض المعترضين بل زاد افتخاراً بتصوفه وروحانيته

وقد فرق في كتابه بين ديانة الجماعات الضيقة وديانة الانسانية الواسعة التي ليس لها وطن . . وفرق ايضاً بين التقاليد الدينية التي تضيق على الافراد والعبادة المفعمة بالاحلام والحب . وقال ان الايمان ليس خوفاً وخشية بل هو امان من الخوف . إذن فالديانة المتحركة خير في مذهبه من الديانة الساكنة وهذه الديانة المتحركة هي طريقة التصوف ، ولا خلاص لمدنية الصناعة من شقاء المادة الا بابداع جديد في افق الحياة الاخلاقية والدينية وذلك بالاعراض شيئاً فشيئاً عن مظاهر الرفاه والرجوع الى الحياة البسيطة ، لان ازدياد الرفاه وتعدد الحاجات ، وارتقاء الاختراعات الصناعية كل ذلك لم يحسن مصير الانسان ولا خفف من شقائه . ولا تقع تبعة ذلك على العلم لان العلم لا يبحث عن السعادة ولا عن الشقاء . فلا محيد إذن عن التقدم العلمي . ولئن كان في التقدم حياة فليس في السكون واتباع التقاليد كمال . ولذلك انتقد هنري برغسون فرائض الديانات الاتباعية كما انتقد صور المدنية المزيفة . لان المثل الاعلى عنده هو الحب ، والحب هو الابداع . فما قاله في ذلك : « ان ذات الاله هي الحب ، ولكن هل نحب للحب ذاته ، ام نحب لشيء آخر غير الحب ؟ ان العواطف السامية قائمة بذاتها ، وهذه الموسيقى تدل على الحب ، كأن لكل موسيقى حباً ، ولكل حب موسيقى . الا ان هذا الحب ليس حب شخص من الاشخاص . اذا تغيرت الموسيقى تغير الحب . كأن هناك فلكين لعاطفتين مختلفتين اوعطرين متباينين . وفي كلا الحالين لا نعرف الحب بغايته بل نعرفه بذاته وهو هو لم يتغير . . . . ولكن من ذا الذي يعشق للعشق نفسه من غير ان يكون له معشوق ؟ الا يقول المتصوفون ان الاله محتاج الى الناس كما ان الناس محتاجون اليه ؟ فالاله عاشق وهو بحاجة الى معشوق ؟ كما ان الابداع هو خلق كائنات مبدعة جديرة بان تعشق » . (ص ـ ٢٧٣)

الى مثل هذه النتائج الساحرة يوصلنا هنري برغسون بلغته الشعرية ولو ساعدنا المكان لنقلنا جميع آرائه في المدنية الحديثة . الا اننا نقتصر على بعضها : فمنها قوله ان الحرب ضرورة طبيعية ناشئة عن تزايد السكان وفقدان الاسواق التجارية ونقص المواد الاولية . وانه لا يمكن منعها واخماد نارها الا بمعالجة اسبابها الطبيعية كمراقبة ازدياد السكان وتنظيم الانتاج وغير ذلك وانه لا نجاح لعصبة الامم إلا اذا شاركت الدول في وضع شرائعها الداخلية فلا بد اذن من تنظيم الانتاج وجعله متناسباً مع الاستهلاك . ولا بد من رادع عقلي يوقف الغريزة عند حدها . وقد ادرك اليونان ذلك منذ القدم فجمعوا في اساطيرهم بين (فينوس) الهة الحب و (مارس) اله الحرب . ومعنى ذلك ان الامر اذا وسد الى (فينوس) فانتظر الساعة ، لان فينوس هي رمز الغريزة فيجب كبح جماحها وايقافها عند حد العقل . ولعل الاصلاح لا يكون إلا بالرجوع الى الحياة البسيطة وتخفيف الرغائب والحاجات وهذا يقتضي العدول عن اتباع اللذة في سبيل اللذة

ومن الآراء التي جاء بها هنري برغسون ان المرأة مساوية للرجل في المدارك العقلية وانها دونه في العاطفة . ويقصد بالعاطفة ، العاطفة العميقة ،

لا التهيج السريع والاضطراب الموقت . ومنها انقياده لمذهب الاجتماعيين (لفي برول) و (دور كهايم) في العقلية الاولية وقوله ان الاساطير ضرورة لا محيد عنها وانها ملازمة للعقل البشري وان العقلية الاولية موجودة في دماغ الرجل المتمدن ايضاً ، ولعلها موجودة في دماغ (لفي برول) ايضاً . وهكذا فان هنري برغسون يعتقد ان الطبيعة البشرية واحدة الجوهر وهو اقرب الى الايمان بالاخلاق من اصحاب المذهب الاجتماعي الفرنسي

وقصارى القول ان مذهب هنري برغسون في منشأ الاخلاق لا يختلف عن مذهبه في منشأ العلم ، وهو مذهب حيوي يجعل الاخلاق الحقيقية قائمة على الحياة والحب والابداع لا على التفكير المقيد باحكام المنطق الجامدة

جميل صليبا

٧٥ ـ فاستفدت التاريخ

قال الفقيه المقري : انشدت يوماً الابلي قول ابن الرومي :

أفني واعمى ذا الطبيب بطبه ... وبكحله الاموات والاحياء

فاذا مررت رأيت من عميانه ... أممـا على امواته قراء

فاستعادني حتى عجبت منه ، مع مـا اعرف من عدم ميله الى الشعر وانفعاله ، وظننت انه اعجب بمـا تضمنه البيت الاول من غريب اللف والنشر المكرر الذي لا اعرف له ثانياً فيه فقال اظننت اني استحسنت الشعر ؟

فقلت : مثلك يستحسن هذا الشعر ؟

فقال . تعرفت منه كون العميان كانوا في ذاك الزمان يقرؤن على المقابر فاني كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ .

رفعتُ يدي واعترفت

شعر: طاهر رياض

(١)

أنا الآن ثرثرة تستفيقْ

حنينٌ يعاود أنحاءه

قفزة في الهواء تهيء أعصابها

لتلم الطريقْ

أنا الآن منحرفٌ عن صراطي

يراودني الماء عن شفتيّ،

أراوده عن كلال يديه

ونهذي معاً بالبروقْ

لكأسٍ تباغتها الخمرُ،

تنفش أضلاعها الخمرُ

أو لانفتاح السماء على نفسها

سقطةً

سقطةً

حين تُرخي مباهجها

وتميط رؤاها

ومثلي على صمتها تستفيقْ!

أجادلُ فيَّ . .

وأنشرني عارياً من حدودي

أراني تهرّأتُ

أقذفني كي أعود جديداً

بعُرض الحريقْ!

(٢)

تعودتُ أن أشتهيه

وأن أتمادى إلى قبره كلَّ خوفٍ
أصلي عليه،

وأحشر بين ملامحه الآبقاتِ

احتفالَ النشورْ!

تعودتُ أن ألتقيه

على حافة التيه فَرقاً

يحفّز ناصية الوجد،

أو يستهلُّ الدمار الأخيْر

/له كلَّ نزفٍ صراخٌ

وكل صراخٍ نفيْر. . /